منازل السائرين

رؤى في تجليات نور اليقظة على قلب السالك



حسين حيدر خاني

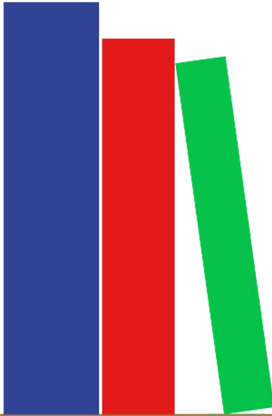
ترجمة

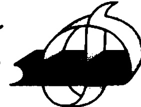
عرفان محمود

دار الهادي

الطّبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م





دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

منازل السائرين

رؤى في تجليات نور اليقظة على قلب السالك

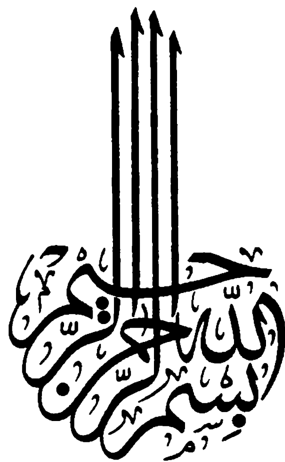
حسين حيدر خاني

ترجمة:

عرفان محمود

دار الهادي

للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

السير والسلوك إلىٰ الله جل جلاله مصطلح أطلقه أهل المعرفة علىٰ حركة الإنسان التكاملية للوصول إلىٰ الغاية من خلقه، وهذه الغاية تحددها بوضوح النهضة الشرعية بأنها: تحقق العبادة الخالصة لله تعالىٰ والمستندة إلىٰ المعرفة السليمة به عز وجل وبأسمائِهِ وصفاتِهِ[1]، فإذا حقق الإنسان هذه الغاية عرج إلىٰ مراتب مقام «المقربين» إلىٰ الله جل وعلا في الدنيا والآخرة، وهذا المقام حسب إصطلاح أهل المعرفة هو مقام البقاء بالله بعد الفناء[2]، أي البقاء بالله جل وعلا بعد هجر عبودية النفس والتحرر من إرادتها بالكامل والفناء في إرادة الله عز وجل فلا تكون للعبد إرادة مستقلة عن إرادة مولاه جل جلاله، وهؤلاء يحظون بلقاء الله جل وعلا بوجوه ناضرةٍ وإلىٰ ربها ناظرة[3] بعين البصيرة ويفوزون بكمال الإنقطاع إليه فتخرق أبصارُ قلوبهم حجب النور وتصير أرواحهم معلقة بعزٍّ قدسه تبارك وتعالىٰ بعد أن تتنور بصائرهم بضياء

(١) عن الإمام الحسين ـ سلام الله عليه ـ قال: «أيها الناس، إن الله جل ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادةِ مَن سواه...»، علل الشرائع للشيخ الصدوق ١: ٩.

(٢) راجع كتاب (فلسفة عرفان) بالفارسية للدكتور يحيى اليثربي: ٤٢٢ ـ ٤٢٤.

(٣) تدبر في: سورة الإنشقاق: ٦، القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.

نظرها إليه فيناديهم ربهم بنداء خفي لا يعيه غيرهم يجعلهم يعملون له ـ جل وعلا ـ جهراً[1].

هذه الحركة التكاملية للوصول إلىٰ هذه الغاية المقدسة والمراتب العالية تعتمدُ علىٰ جناحين أساسين هما: جناح العلم والمعرفة، وجناح العمل والعبادة، والتحلي ـ بواسطة ذلك ـ بالكمالات القلبية، والأخلاقية والجوارحية والتي تؤهل الإنسان لقرب الله تبارك وتعالىٰ، والجناح الأول هو المعبّر عنه بالسير الذي يعني التحليق في آيات الله وفي الآفاق والأنفس إلىٰ الدرجة التي يفوز معها السائر ـ بتهذيب النفس وتطهير القلب ـ بالمعارف التوحيدية الحقة فيرىٰ حقائق الأشياء علىٰ ما هي عليه ويعرف أن الكمال الحق والوجود الحق منحصر في الله جل وعلا، وما عداه سراب زائل فور وصول السائر إليه، أما الجناح الثاني فهو المعبّر عنه بالسلوك إلىٰ الله ويعني التحرك العملي في طي مراتب الكمال ومنازل القرب من الله عز وجل من خلال العمل بما تقتضيه المعارف التوحيدية وتأمر به الأحكام الشرعية أي التقرب إلىٰ الله بالفرائض والنوافل واجتناب المعاصي بمختلف أقسامها: الاعتقادية والأخلاقية والجوارحية.

ولكن هل يمكن للإنسان إلىٰ أن يتوجه لطي هذا الطريق المقدس مع غفلته القلبية وليس الاعتقادية فحسب عن الغاية من خلقه وعن حقائق عوالم الغيب ومع حبس قلبه في أمر ظواهر الحياة الدنيا؟ الإجابة واضحة فغفلة الإنسان عن الغاية من خلقه تصده عن السير والسلوك إلىٰ الله عز وجل بدءً واستمرارً، ولذلك نجد في الكثير من الآيات الكريمة حثاً مؤكداً علىٰ إدامة التفكر لتنبيه القلب من هذه الغفلة

(١) اقتباس من مناجاة الإمام علي والأئمة من ذريته ـ سلام الله عليهم جميعاً ـ في شهر شعبان، مفاتيح الجنان (المعرب): ١٥٨ ـ ١٥٩.

وإيقاد شعلة المعرفة- الوجدانية التي تدفعه إلىٰ طي منازل هذا الطريق بدءً واستمراراً[1].

وقد أطلق أهل المعرفة علىٰ هذه الشعلة التي تسعىٰ النصوص الشرعية إلىٰ إيقادها في قلب الإنسان بالتفكر مصطلح اليقظة، واهتموا كثيراً بتوضيح دقائقها وشروطها، وقالوا في تعريفها: القومةُ لله: هي اليقظةُ من سنة الغفلة والنهوض من ورطة الفترة وهي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه»[2].

اليقظة وكما يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام ـ نورٌ[3] يوقده التفكر السليم الذي تحث عليه النصوص الشرعية، وهذا النور يبعث في قلب الإنسان العزم والإرادة للتحرك التكاملي في طريق السير والسلوك إلىٰ الله عز وجل، أي أن المقصود من اليقظة التي تدعو لها الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ليس مجرد الإيمان النظري بالغاية من خلق الإنسان ولزوم التحرك في طريق لقاء الله والوصول إلىٰ مراتب قربه، فهذا الإيمان وحده لا يوجد حالة القيام لله عز وجل بواجب العبودية والسعي للتقرب منه؛ بل المطلوب هو إيصال هذا الإيمان إلىٰ القلب وترسخيه فيه إلىٰ الدرجة التي يستطيع معها بعث الحركة في الإنسان نحو «القيام لله» وتأهيل نفسه بالجهاد الأكبر والتزكية والتطهير والحصول علىٰ المعارف الحقة، للسير والسلوك إلىٰ الله عز وجل، وبعبارة أخرىٰ فإن

---

(١) لاحظ رسالة لب اللباب في سير وسلوك أولي اللباب: ٢٦، وهي تقريرات دروس العلامة الطباطبائي في السير والسلوك إلىٰ الله.

(٢) هذا هو تعريف الشيخ عبد الله الأنصاري في كتابه المعروف منازل السائرين حيث اعتبر اليقظة أولىٰ منازل السائرين إلىٰ الله وصدر باب اليقظة بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ (الزمر: ٤٦)، شرح الشيخ الكاشاني لمنازل السائرين: ٣٤.

(٣) قال عليه السلام: «اليقظة نور»، وعنه عليه السلام قال: «مَن لم يستظهر باليقظة لم ينتفع بالحَفظة»، كما في كتاب غرر الحكم ودرر الكلم.

اليقظة حالة قلبية ووعياً قلبياً وليس قناعات عقلية مجردة، وإن كانت هذه القناعات العقلية هي وسيلة التفكر ومقدمة إيجاد اليقظة القلبية المطلوبة.

والحاجة إلىٰ إيجاد هذه اليقظة مستمرة طوال مسيرة الإنسان في طي معارج النور والقرب من الله عز وجل، بمعنىٰ أن الحاجة مستمرة لأن يحفظ السالك إلىٰ الله يقظته هذه وينفي عن قلبه الغفلة هذا أولًا، وثانياً هو في حاجة لترسيخ هذه اليقظة ورفع درجتها مع كل منزل من منازل السلوك إلىٰ الله عز وجل، كلما تقدم في هذه المنازل كلما احتاج إلىٰ درجات أعمق من اليقظة وأقوىٰ رسوخاً في القلب لكي يتمكن من امتلاك حالة العزم والإرادة اللازمة لتحمل صعاب طي المراتب المتقدمة من المنازل السلوكية.

واليقظة بملاحظة سبل الفوز بها والحصول عليها نوعان: ـ يقظة ذاتية يكتسبها الإنسان من خلال تهيئة أسبابها الطبيعية، وأهم هذه الأسباب التفكر في المجالات التي أمرت النصوص الشرعية بالتفكر فيها، كذكر الموت والمبدأ والمعاد وسنن الله في خلقه وآياته وما أراده من خلق الجن والإنس وما قدره لهم وثمار السير والسلوك إليه والتقرب منه جل جلاله والآثار الخبيثة للإخلاد إلىٰ الأرض والركون للدنيا والمعاصي بمختلف أقسامها ومراتبها المتناسبة مع المرتبة السلوكية للمؤمن. وخير سبيل ووسيلة لذلك التدبر في مواعظ القرآن والأنبياء والأوصياء ـ صلوات الله عليهم ـ والإتصال المستمر بهذه النصوص المباركة فهي توقظ القلب وتنفي عنه الغفلة وتبعث فيه إرادة القيام لله عز وجل في كل مرحلة من مراحل السير والسلوك إلىٰ الله عز وجل. ويمكننا أن نسمي هذا النوع من اليقظة باليقظة الاكتسابية.

وأما النوع الثاني فهي اليقظة الجذبية الخاصة التي يتفضل الله عز

وجل بها علىٰ مَن يشاءُ من عباده، ورغم أن اليقظة الاكتسابية هي أيضاً لا تكون إلا بتوفيقٍ من الله عز وجل إلا أن للأسباب الظاهرية واجتهاد العبد في العمل بهذه الأسباب دوراً أوضح في حصولها، أما اليقظة الجذبية فالرعاية الإلهية فيها أوضح وأقوىٰ والألطاف الربانية فيها أعظم وأجلىٰ، إنما هداية خاصة يتفضل الله جلت حكمته علىٰ مَن يشاء من عباده المجاهدين فيه أو المجاهدين في سبيله؛ ولذلك فهي أقوىٰ وأسرع وأضمن تأثيراً في إيصال السالك إلىٰ مقصوده ومقصده في كل مرتبة من مراتب سلوكه بدءً واستمراراً، من اليقظة الاكتسابية.

وقد شاءت حكمة الله جل وعلا في تربية عبادِهِ أن تأمرُ النصوص الشرعية المؤمن بالاجتهاد في طلب التوفيق لليقظة والتنور بنورها بكلا نوعيها دون أن يغفل عن أي منهما عند طلبه للآخر، فهي تأمره بطلب اليقظة الكسبية والسعي للحصول عليها بالتوسل بأسبابها المشار إليها والتقرب إلىٰ الله بوقودها وبنورها الذي يُنير له طريق الوصول، كما أن النصوص الشرعية تأمره بطلب اليقظة الجذبية من مسبب الأسباب جلت قدرته والسير بوقودها الأقوىٰ ونورها الأبهج في طريق القرب الإلهي، وقد تفضل الله ـ جل جلاله وبرحمته الواسعة ـ علىٰ عباده بجعل وسيلة خاصة لطلب اليقظة الجذبية الخاصة، وهي التعرض بصالح الأعمال للنفحات الربانية الخاصة التي تجذب قلب السالك بالجذبات الربانية وتنيره بنور اليقظة الخاصة التي توصله إلىٰ هدفه الأسمىٰ وغايته القصوىٰ، قال رسول الله ﷺ: «**إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها**»[1]. ولعل أفضل ما يتعرض به المؤمن لهذه النفحات الربانية الخاصة التي تنير قلبه بنور اليقظة الجذبية الخاصة هو التضرع

(١) المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء للفيض الكاشاني ٥: ١٥ وقد ذكر في الهامش أن الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

إليه جلّ وعلا في الأسحار بنوافل الليل وبالمناجاة المروية عن أهل بيت النبوة ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ، وكذلك بالتوسل إليه جل وعلا بأوليائِهِ الطاهرين ـ صلوات الله عليهم ـ لا سيما ما يرتبط بسيد الشهداء ـ سلام الله عليه[1] ـ، وكذلك بخدمة عباد الله وخلقه لا سيما ذرية رسول الله ﷺ[2]، والمهم في كل مصاديق التعرض للنفحات الإلهية هو إخلاص النية.

والكتاب الذي نقدمه ترجمة لقراء العربية هو من الكتب العرفانية القليلة المخصصة للحديث عن ما ينبغي للمستيقظ القيام به وعن نور اليقظة ومراتبها وتأثيرها في إيصال طالبي القرب الإلهي والانقطاع إلىٰ معدن العظمة والعزة والجلالة والكرامة والكمال، وقد حرصنا في ترجمته علىٰ حفظ اللغة الوجدانية الخاصة التي حرص المؤلف علىٰ الالتزام بها رغم ما اشتملت عليه من تكرار لبعض القواعد السلوكية وكثرة الشواهد الشعرية الفارسية، وقد أردفنا الترجمة بتخريج للنصوص الواردة فيها وبتعليقات وتوضيحات لبعض الأفكار الواردة في المتن وبعض الشواهد الشعرية التي أوردها المؤلف بما سنحت له الفرصة المحدودة المخصصة لترجمة هذا الكتاب، منبهين إلىٰ أنها جارية علىٰ مجرىٰ الرموز المألوفة في الشعر العرفاني الفارسي فينبغي في قراءة ترجماتها النثرية ملاحظة المعاني الحقيقية للرموز المستخدمة فيها. نسأل الله تبارك وتعالىٰ أن ينور قلوبنا بنور اليقظة ويتقبل منا هذا العلم بلطفه وكرمه إنه نعم المولىٰ ونعم النصير.

١١/ رمضان المبارك/ ١٤٢٢

عرفان محمود

---

(١) راجع كتاب الخصائص الحسينية لآية الله الشيخ التستري وخاصة المقدمة.

(٢) فإن محور التقرب إلىٰ الله عز وجل هو بتعظيم الخلق وخدمة الخالق.

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمٰن الرحيم وبه نستعين
اللهم صلِّ علىٰ محمد وآل محمد وعجل فرجهم

في غربة الدنيا هذه، كانت صحف أحوال العشاق المتلوعين والصادقين الولهين، بلسم روحي العليلة أنا المسافر الغريب وأنيس قلبي أنا الفقير، ولقد أحاطني بلطفهم جمعٌ من إخوان الصفا وخلان المحبة والوفا ـ زيّنَ الله ظواهرهم وبواطنهم بأنوار العرفان ـ من الذين انطلقوا من فيافي العدم وتوجهوا بقلوبهم إلىٰ حضرة الوجود الحق ـ جلَّ وعلا ـ، فاستشعروا حزن الفراق، إذْ طلبوا مني أن أقرر للأعزاء المتحررين صحائف في منازل السلوك التي طواها طلاب مشاهدة الجمال الحق والراغبون في مجالسة منبع الكمال، عزَّ وجل، الذين اُرتوا من شراب الفقر والغناء بكأسٍ طهورٍ سقاهم منه مرادهم وأنيس أرواحهم، وارتدوا خلعة اللاهوتيين فتصدوا محفل صنائع حضرة القدس تبارك وتعالىٰ.

طلبوا مني أن أبيّن لهم تقريرات في منازل سلوك هؤلاء ما يكون ريّاً بشراب الفيض القدسي لظمأ عطاشىٰ الوصال وحيارىٰ وادي الجمال، فكان أن دخلت السعادة علي من باب الكرم حاملة

معها نفحات من الألطاف الأزلية وروتني بجرعة من كأسها ـ تكرماً منها ولطفاً ـ، فسعيت ببركة التوفيق إلىٰ أن أهدي أعزائي تحفةً من صحيفة سلوك طالبي سحائب رحمات وجه الباقي والمتلهفين للإستنارة بأشعةِ سطوات التلاقي، واجتهدت في أن أقدم لهؤلاء الأعزاء هدية من ديار الأنس، لكي يتعرفوا ـ بأنوار هدايتها ـ علىٰ سبل إنقطاع الذين سلكوا مسالك الناسوت عن كل الأغيار، وكيف آرتوا من ماء التوبة والإنابة، وكيف تفانوا في طريق الوصول للحبيب؛ من أين انطلقوا وإلىٰ أي مدىً اجتهدوا في الكدح والسعي حتىٰ وصلوا إلىٰ غاية مقصودهم: أي إلىٰ حضرة الحبيب الذي تطمئن إليه القلوب سبحانه وتعالىٰ، فقبلوا عتبة صرحَهُ الشامخ وعقدوا عقد الطاعة والتسليم له.

لقد نشرت الرحمة الإلهية والألطاف الربانية ظلالها عليّ أنا العاجز، فلبيتُ ـ بقوة الكريم القادر والرحيم اللطيف بعباده ـ طلب أولئك الأعزاء، فقررت لهم شيئاً من منازل للسلوك، ثم طلب مني رفيق الطريق والسالك الصدّيق الذي تشرف في طريقتنا بشرف لقب «محبوب علي»، أن أحرر بالكتابة ما قررته من لطائف «اليقظة» عسىٰ أن تكون وسيلة لطلاب ديار الحبيب ـ جل وعلا ـ لكي يهجروا بيت الغربة ويخوضوا في ذلك البحر المواج الذي ينسىٰ من يخوضُ في أعماقه ذكر الساحل؛ وعسىٰ أن تكون لطائف اليقظة تلك سبباً لرفع سالكي ديار الحبيب إلىٰ حبس أنفسهم علىٰ حمل هم السلوك الذي لا يمكن لأي عاقل أن يفكر بتحرير نفسه من سجنه.

يُضاف إلىٰ ذلك أن عدةً من رفاق الطريق الصديقين المشاركين في هذه المجالس قد تمنعهم مشاغل الحياة من حضور

هذه المجالس أحياناً فيحرمون من فيوضات هدايا الحبيب، ولذلك يمكن أن تكون التقريرات المكتوبة وسيلة لمواصلة استفادتهم من تلك اللطائف الغيبية. وبهذه الاستدلالات كرر ذلك الابن الروحاني طلبه الصادق بإلحاح عليّ، وكانت العاقبة أن هطلت من غمائم الرحمة ومن سماء الجود الأمطار المباركة عليّ أنا العاجز المسكين فأهدتني - دون استحقاق مني - توفيق الاستجابة لطلب ذلك الرفيق الشفيق والجليس الصديق، وحالفني بذلك الفوز بشرفِ إنجاز هذه المهمة، فللّه الحمد وله الشكر علىٰ مكرمةِ أن:

أصبحت أميناً علىٰ أسرار سالكي الطريق، وجليساً لسكنةِ حضرةِ القدس[1]

ولكن ليس بي طاقة علىٰ أداء الشكر والثناء علىٰ الجواد الكريم الرؤوف بالحيارى والتائبين، وليس بي جرأة علىٰ دعوة المعين لكل حائر والمغيث لكل مستغيث، من أجل أن يداوي جرحىٰ سبيله المفتقرين إلىٰ بلسمه الشافي، اللهم إلا أن يشملني - جلت عظمته - بألطافه ويتفضل عليّ ببلسم للجراح ودواء للآلام من خزانةِ جوده وكرمه؛ ومن أجل ذلك ها أناذا أتضرع إليه جلّ وعلا طالباً منه العون والغوث والمدد لإنجاز هذه المهمة مستعيناً لذلك بمناجاة لأحد مقدسي حضرته هو الشيخ عبد الله الأنصاري - قدس الله روحه العزيزة - حيث يقول:

أيها الكريم الواهب للعطايا، ويا أيها الساتر للخطايا، أيها الصمد لا تدركه أوهام وعقول الخلائق، يا أحد لا شبيه لك في ذاتك ولا صفاتك، أيها الخالق الهادي، والقادر الجدير بالألوهية: -

---

(١) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية.

طهر أرواحنا واملأ قلوبنا حباً لك، ونوّر أبصارنا بضيائنا، وتفضل علينا بما فيه صلاحنا. آمين رب العالمين.

غرة شهر رجب ١٤٠٩ للهجرة المباركة، المصادف ١٩/ بهمن/ ١٣٦٧هـ.ش

تراب أقدام شيعة أهل البيت عليهم السلام

حسين حيدر خاني الملقب بلقب (مشتاق علي)

«إن نور اليقظة هو أول نور يستنير به قلب العبد، وهو نورٌ يهب العبد الحياة ويؤهله لدرك نور التنبيه».

الشيخ عبد الله الأنصاري

شع قبسٌ من دار ليلى في السحر فأجج النار في بيدر المجنون ذي القلب المتعب[1].

إذا شع قبسُ اليقظة خمدت نيران هواجس النفس ووساوس الشيطان وغرور الجهل، وقوت في روضة الروح الرغبة في التحرر من أسر بيت النفس واشتد الشوق لوصال الحبيب ـ جلّ وعلا ـ وعندها يعرف الإنسان قدر نفسه ويقرأ صحيفة أعماله، فيسأل نفسه:

هل أنت مطرود من الحضرة القدسية أم مقبولٌ فيها؟

هل أن كل وجودك نوريٌ أم أنت بعيد كل البعد عن الروحانية؟

هل أنت عبد الرحمان أم أنك صاحب دكان، أم أنت من العاطلين[2]؟

إذا استيقظ الإنسانُ وأناب فإن الشوقَ للسفر إلى ديار النور

---

(١) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية يستخدم ما اعتاده شعراء الشعر العرفاني الفارسي من رموز في التعبير عن الحضرة الإلهية القدسية بدار ليلى.

(٢) من كلمات العارف الشيخ عبد الله الأنصاري صاحب كتاب منازل السائرين الذي يعد من أهم المتون السلوكية في مدارس العرفان والسير والسلوك إلى الله، وقد شرحه عدة من العلماء بينهم الإمام الخميني في دروسه الأخلاقية التي كان يلقيها في المدرسة الفيضية في قم.

والمعرفة سيملأُ كل وجوده، فيرفع حينئذٍ يدَّ الافتقار للقادر القدير الغني، وينشرح صدره فتنفذ إلىٰ باطنه أشعة التوحيد الطالعة من مشرق الغيب علىٰ أهل السعادة، فتداوي أمراضه التي تجاوزت الحدود، وتطهرُ نارُ العشق المتأججة في كل وجوده قلبَهُ من رجس الوساوس الشيطانية وغبار الأهواء النفسانية:

أنتَ سر علتي وأنت بلسمها، وأنت مماتي وأنت حياتي
لقد هاجت علتي فابعث لي بالدواء، فأنت دواء علتي
التي ليس لها غيرك دواء
الىٰ متىٰ يبقىٰ قلبي محترقاً بنارك، فارحم قلبي أيها الحبيب
لقد تأججت نارُ حبك في كل كياني فأحرقت منهُ اليابس والرطب
قدمت في اليوم الأول ديني وقلبي، فماذا سينزل بي في اليوم الأخير[1]؟!

إن استشعار المستيقظ التائب وبعمق لفقره إلىٰ مراده يهيىء الأرضية الصالحة لهبوط أول أنوار اليقظة الإلهية علىٰ قلبه، وهذا النور يجعله ولهاً ويبعث فيه الهمة العالية للتزكية وتهذيب النفس لكي يزيل بذلك الأرجاس المانعة لتجليات الأنوار الأسمائية والصفاتية علىٰ قلبه، فإذا زكاها وطهرها حلت في قلبه عروسُ اليقظة بكل جمال العشق، وسيطرت علىٰ جميع جوارحه وأعضائِهِ وسخرتهم جنوداً لها، وعندها يكون باطن المستيقظ التائب مجلىً لمشهد ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[2]،

(١) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية: والخطاب لله جل وعلا.
(٢) الإسراء: ٨١.

فتشرع اليقظة مع جنودها بإصلاح ما خربته هواجس النفس ووساوس الشيطان، وينهمكُ نورُ الطلب القدسي ـ بشوق واشتياق ـ في الخدمة ويحرّض الإنسان علىٰ حراسة قلبه وحماية الضيف الإلهي الكريم الذي حلّ فيه، ولكي يمنع بذلك الشيطان المتربص به دوماً من إثارة عواصف الأهواء النفسانية ودفعها لإطفاء «**نور اليقظة**»، وعندها ترجع الظلمات إليه وتتسلط علىٰ وجوده ثانية.

أصبحت حارساً يقظاً لحرم القلب في كل ليلة لكي لا أفكر في أي شيء غير الحبيب[1].

يقول علي أمير المؤمنين عليه السلام: «**إياكم وغلبة الشهوات علىٰ قلوبكم**»[2].

وإثر هذه اليقظة يقوم المتنورُ بنورها لله ويبدأ سفره إليه تعالىٰ بحثاً عن المنزل المعهود؛ مرتدياً جلباب السكينة ومستبطناً نار الشوق، فيهجر الدنيا رغبةً في الوصول إلىٰ ديار الحبيب، ويطوي الدرب علىٰ صوت طائر العشق، حتىٰ يصلَ إلىٰ ديار المقصود ويدرك موطن «عنقاء»[3] الحقيقة، يتجاوز بهذا الشوق والعشق عقبات منازل السلوك وصعابها، لكي يبلغَ إلىٰ معدن ينابيع الشهود ويرتوي من معينها الصافي فيذهب عن نفسه ذهول مَن لا يفكر بالعودة من تلك النشأةِ أبدَ الآبدين.

---

(١) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية والمقصود هو اجتهاد السالك في إبعاد كل ما يشغله عن الله جلّ وعلا وإبعاد الخواطر عن قلبه.

(٢) معجم ألفاظ غرر الحكم ودرر الكلم: ١٢٩١، الحديث ٤٠٥.

(٣) «العنقاء» يطلق كاسم لطائر أسطوري تستخدم في الأدبيات العرفانية كرمز للإشارة لآخر منازل السير والسلوك وعين لبّ الحقائق، وفي مجمع البحرين للطريحي: ٤٠٨، العنقاء: طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم لا يراه أحد.

إذن، فالذي يوقد نار العشق في مجانين «ليلىٰ المعرفة» هو تجلي نور اليقظة، فهو الذي يحرق قلوب عشاق الله بألسنةِ لهيب نار الحب والتوحيد، فيسلبهم الاستقرار ويدفعهم إلىٰ سلوك الوادي الموصل إلىٰ حبيبهم، فيحصلون علىٰ مائةِ علامة علىٰ حبيبهم الذي لا علامة له:

إذا استيقظتَ من هذه النومة الثقيلة، وجدتَ مائة علامة لحبيبك الذي لا علامة له(١)

عندما يتجلىٰ نور اليقظة: يستيقظ نيام الغفلة من نومتهم الثقيلة، ويتحركون دون اختيار منهم، ويواصلون سيرهم حتىٰ يفنوا نفوسهم ويمحوا صفاتهم المذمومة، فإذا وصل السالك بنور المعرفة إلىٰ كعبة الوصال، بقي عندها قليلًا ثم يرجع من السفر إلىٰ الله، فيجد ثانية كلا العالمين في ذاته ولينور العالم بهدية النور المستقرة في روحه، ويضيءُ بها قلوب المشتاقين، ويزيح عن أعناقهم أغلال التعلقات ويحررهم من أسر الغم:

أسيرة هي الأشجار المتعلقة بالأغيار، فطوبىٰ للمتحرر من أسر الغم(٢).

ما دام الإنسان أسيرَ التعلقات، فهو محرومٌ من هذا النور القدسي، لأن الجميع ـ وبحكم الفطرة السليمة ـ يطلبون ـ كما كان حال يعقوب كنعان الروح ـ يوسف السعادة، لذلك فعليهم أن يهيأوا ـ بهمة

---

(١) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية يشير إلى السير والسلوك إلى الله يوصل السالك إلى نمطٍ من المعارف التوحيدية التي لا يمكن اكتسابها بالعلم الكسبي المألوف فهي معارف شهودية خاصة يثمرها مجاهدة النفس والجهاد في الله تعالى الذي يثمر معرفة سبل الله الخاصة أو قل العلوم اللدنية.

(٢) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية يشير إلى أن السبل المتفرقة ـ غير الصراط المستقيم ـ لا يوصل الإنسان إلى ما ينشده بفطرته السليمة من القرب الإلهي.

عالية ـ كل وجودهم لاستقبال نور اليقظة، ويعدون الدقائق في إنتظار لحظة تجلي هذا النور القدسي:

ثلاث ساعات انقضت وأنا في انتظارك أيها الحبيب، مرت ببطء انقضاء عمر الدهر كله[1].

القلب محل تجلي نور اليقظة:

يحظىٰ القلب ـ وهو أكثر أعضاء البدن لطافةً ـ بمنزلة خاصة عند العرفاء، لأنه محل تجلي أنوار الحق تعالىٰ، وهم يعتقدون أن السالك إذا عرف حقيقة القلب وصل مقاماً يستطيع إدراك كل ما يريده بقوةِ القدرة الإلهية، بمعنىٰ أن إرادته تصير من إرادة الله، فيظهر سر حقيقة: **«مَن كان لله كان الله له»**.

وبسبب هذه الأهمية الخاصة للقلب، فإن أئمة أصحاب السلوك، يبدأون بتربية المستيقظ التائب من القلب لأنه مخزن الأسرار الذي يتسع لكلا العالمين، فهو محل انعكاس العالم الكبير في العالم الصغير، وإذا تحرر القلب من أسر وساوس الشيطان وهواجس النفس، عرج إلىٰ ملكوت الحقائق فيصل إلىٰ المقام الذي يفسر فيه عملياً وبلغةِ العرفان كلام الشيخ الأجل سعدي الشيرازي: **«يصل الإنسان إلىٰ مقام لا يرىٰ فيه غير الله»**.

يُحكىٰ أن الواسطي العارف الذي انقطع عن الخلق واتصل بالحق تعالىٰ، رأىٰ مجنوناً مقيداً بالسلاسل وهو يرقص نشواناً بسرورٍ، فسأله: لماذا تفرح وترقص والسلاسل تُثقل رجليك؟ وكيف تستشعر الحرية وأنت عبدٌ مسترق بالأغلال؟ أجابه المجنون: يا شيخ، إن كانت

(١) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية.

رجلاي في أسر الأغلال فقلبي متحررٌ منها، لقد قيدوا رجليَّ لكنهم عجزوا عن تقييد قلبي!!

أجل، علىٰ الذين يريدون سلوك طريق الحبيب ونصب خيامهم في صحراء العشق والطلب للمعشوق أن يكافحوا تسلط الشيطان وجنوده علىٰ القلب، فهذا التسلط يعمي بصيرته، وعليهم أن يحرروه من أسر أغلال الشيطان إذا شاهدوه مثقلًا بها، فهو مرآة رؤية العالم، ومحل تجلي أنوار جمال ذي الكبرياء، وإذا تطهر من الأرجاس وتنزه عن التأويلات والأوهام والأفكار الباطلة صار «مرآة الله»، ولذلك قالوا في وصف القلب المطهر: **«قلب المؤمن مرآة الله»**[(١)].

إذا كان الإنسانُ مالكاً لنفسه وليس مملوكاً لها: استطاعَ أن يكون غارقاً في مشاهدة الحق تبارك وتعالىٰ في الوقت نفسه الذي يكون منشغلًا بشؤون الدنيا الترابية، لأن القلب وصل إلىٰ مقام «مرآة الله»، فوسع الحق جل وعلا الذي لم تسعه السماوات والأرض[(٢)]:

يصيرُ القلب في الحقيقة مرآة للعالم يَظهرُ فيه كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ، فاعرف ذلك

---

(١) راجع سفينة البحار ٢: ٤٤١، وتأمّل في قول الإمام الصادق عليه السلام وقد دخل عليه رجلٌ وقال له: أرأيتَ الله حين عبدته؟ فقال عليه السلام: «ما كنتُ أعبدُ شيئاً لم أره... لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان» (سفينة البحار!: ٤٩٣.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث القدسي: «لا يسعني أرضي ولا سمائي ويسعني قلب عبدي المؤمن»، إحياء علوم الدين للغزالي ٣: ١٥، وفي هامشه عن الطبراني مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وآله: **«إن لله آنيةً من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين»** راجع شرح الشيخ عبد الرزاق الكاشاني لكتاب منازل السائرين للشيخ عبد الله الأنصاري: ٢٩ وهامشها. ويُلاحظ هنا أن المقصود قلب المؤمن والعبد الصالح وليس كل قلب، فالقلب المؤمن العابد الصالح هو الذي يكون محلًا للتجليات الإلهية.

فهو مرآة ذات ذي الجلال، والجمال الحق إنما يتجلىٰ
في القلب النقي
فالسماوات والأرض لا تسع الحق تعالىٰ ولكن يسعه
قلب المؤمن فاعرف هذه الحقيقة[1].

في هذه المرتبة يصيرُ القلب زجاجة النور الموقد من مشكاةٍ من الشجرة المباركة: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[2]، بل يصير ﴿وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ ومظهر تجلياته، وحسب تعبير العارف الشهير نور علي شاه الكنابادي: «ليس هو من شجرة شرقية روحية ولكن بلا جنود، ولا من شجرة غربية جديدة، بل هو مظهر الصراط المستقيم، مسلمٌ لا يهودية فيه ولا نصرانية بل هو من الحنيفية»[3].

وفي هذه الحالة، علىٰ سالك طريق الكمال الطالب لوصال الحبيب أن يتفانىٰ في حفظ القلب ويكرمه لأن الحبيب مُسَكِّن الفؤاد يتجلىٰ فيه بكل جلاله وجبروته، ولأن بإمكان الإنسان أن يعيش بدون أي عضو آخر غير القلب، أما العيش[4] بدونه فهو محال لأنه محل تجليات الجمال.

يقول شيخ الأحرار فريد الدين العطار ضمن حديثه عن القلب: «سقط الثعلب يوماً في الفخ، فأخذ يبحث عن حيلة للخلاص، حتىٰ توصل إلىٰ خدعة التظاهر بالموت، فسقط علىٰ الأرض بهيئةِ الموتىٰ، وعندما جاء الصياد لم يعرض عنه الانتفاع منه فقطع أذنيه وقال: لعلهما

---

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.
(٢) النور: ٣٥.
(٣) كتاب «صالحية» بالفارسية؛ ١٤٧.
(٤) المقصود هنا الحياة الروحية الحقيقية وليس الحياة الجسمية فهذه تنقطع إذا فقدت القلب اللحمي وتلك تنعدم بفقدان القلب المعنوي الروحي.

تنفعاني يوماً من الأيام، فقال الثعلب في نفسه: لا تغتم، فأنت لا زلت حيّاً. ثم جاء صيادٌ آخرٌ وقال: لعل لسانَهُ ينفعني في يوم ما، فقطع لسانه، وجاء ثالث وقال: إن أسنانه تنفعني... بقي الثّعلب علىٰ الأرض بحالةِ الميت وهو يقول في نفسه: يمكن العيش بدون آذان وأسنان ولسان، حتىٰ جاء صيادٌ رابعٌ وقال: إن قلبَهُ ينفعني في علاج علتي! وما أن سمع الثعلب اسم القلب أظلم الكون في عينه وقال: لا يمكن المجازفة بالقلب، لا مناص من الاحتيال بأخرىٰ، فظل يحتال ويماكر حتىٰ تخلص بألف حيلة وخدعة من فخ الصياد».

مكانة محل تجلي اليقظة في مصير الانسان

حقيقةُ الإنسان تتبلورُ في قلبه، وكذلك حال وجوده، فجميع قواه الوجودية تنبعث من القلب وتخضع لأوامره وتعمل بإرادته، فهو الحاكم المطلق علىٰ جميع قوىٰ الإنسان الإدراكية وغيرها، يقول مولانا جلال الدين محمد الخراساني [ما ترجمته النثرية]:

ان حال نفوذ ارادة القلب في الإنسان كحال انسياب الماء من الينبوع

ان شاء قاد صاحبه الىٰ سم الأفاعي وان شاء قاده الى نبع الاعتبار والحكمة

ان شاء أغرقه في المحسوسات أو الملبوسات، وان شاء هداه الىٰ الكليات وان شاء أغرقه في الجزئيات

الحواس الخمس ترىٰ أن جائزتها في تلبية ما يريده القلبُ فهي تركض باتجاه كل صوب يشير اليه

اليدان والقدمان طوع أمره، مثلما كانت العصىٰ طيعة لأمر موسىٰ عليه السلام

ان شاء تراقصت، وان شاء توجهت صوبَ الكمال أو النقصان

ان شاء اندفعت اليد للحساب، أو امتثلت الأصابع أمره
لتسطير الكتاب
فهو الذي يظهر ما شاء الى العلن، يحرك اليد لتكون
أفعىً على العدو أو نصيرةً للولي

حجاب القلب يمنع تجلي نور اليقظة

ابتلي أغلب الناس بتصورٍ خاطىء هو أن معنىٰ القلب ينحصر في العضو المسمىٰ بهذا الاسم في أبدانهم، فغفلوا بذلك عن حقيقة القلب والأسرار والحقائق الكامنة فيه، فكل مَن يتصور أن القلب هو هذا العضو البدني لا يدرك أن القلب حقيقةٌ من الحقائق الخفية ومخلوقٌ من المخلوقات السامية(١).

إن قلوب غير اليقظين التائبين السالكين في طلب الحق تعالى، قلوبٌ ملوثةٌ خربة تعيش حالة الاحتضار وهي معرضةٌ للموت إذا لم يعالِجها طبيبٌ روحانيٌ حاذق، ولا خير في مثل هذه القلوب الميتة التي يسميها أهل السلوك باسم القلوب المريضة أو المحجوبة، والذي لا يعرف قدر ومكانة قلبه يصيبه جهله هذا بأنواع الأمراض:

ان ما يسمّيه العوام قلباً، هو بيت العفاريت لا غير
لا يعرف قدر القلب إلا أهل القلوب الحية، فهم
يعرفون أن لا علاقة للقلب بالماء والطين

---

(١) اهتم العلماء بالبحث في حقيقة القلب ومعناه ويُستفاد من الاستخدامات القرآنية لمفردات: «القلب الفؤاد، الروح، الصدور أو ما في الصدور أو حتىٰ النفس، إن المقصود بالقلب هو اللطيفة الربانية الروحانية التي أودعها الله عز وجل في الإنسان وبها يكون إنساناً ويتميز بها عن غيره من المخلوقات، فهي في أصل وجودها من «أمر الله»، وهي وسيلة عروج الإنسان إلىٰ الله عز وجل إذا لم يلوثها بأرجاس المعاصي والماديات وإلا صارت وسيلته للإنحطاط إلىٰ أسفل سافلين وفي ذلك الخيانة العظمىٰ التي يقع فيها الإنسان لهذه الأمانة الإلهية.

ان القلب هو عرش استواء ذي الكبرياء، فليس قلباً
حياً ذاك الذي يتكبر ويترأس[1]

إن القلب المحجوب هو قلبٌ أسيرٌ خاضعٌ لحكم الشيطان وجنوده، ولذلك شبهه مولانا جلال الدين محمد الخراساني ـ قدس الله روحَهُ العزيزة ـ بالماء المسجون في الطين، فهو يريد الاتصال بالبحر والوصول إليه ولكن الطين يصده عن ذلك ويجذبه إليه، فإذا أراد أن يصل إلىٰ هيئته وصورته الحقيقية فعليه أن يتخلص من أسر الطين:

الماء الطيني يريد الذهاب الىٰ البحر، ولكن الطين قَيّدَ
رجليه وهو يجرها اليه
فإذا تحرر من أسره جف الطين وذهب هو للإتصال
بالبحر
انّ ما يحبس الماءَ في الطين هو جاذبية الحلوىٰ
والخمر العتيق بل وكل شهوة في الدنيا مالاً كانت أم
خبزاً[2]

إذن فالقلب المحجوب ليس قلباً حراً، إنه كالماء المحبوس في الطين، حبسته أشكال التعلقات بالدنيا فهي تجره إليها وتمنعه من الاتصال ببحر الحقيقة، لذلك إذا أردتم أن يسترجع القلب فيكم صورته الحقيقية ويتصل ببحر الحقيقة فعليكم أن تحرروا أنفسكم من هذه التعلقات وأسرها، وحسب تعبير مولانا: عليكم أن تعتبروا أنفسكم من أصحاب القلوب، حتىٰ لو كانت قلوبكم محجوبةً مريضة لا يمكن إطلاق اسم القلوب عليها، أجل عليكم أن لا تنسوا أن القلب الملوث المحجوب لا زال قلباً وإن لم يكن قلباً بالصورة التي ينبغي أن يكون

---

(١) ترجمة نثرية لأشعار بالفارسية.

(٢) ترجمة نثرية لأشعار بالفارسية.

عليه القلب الحقيقي الحر، لأنه ـ كالماء المحبوس في الطين ـ أسير التعلقات، فلا يمكن أن يكون هو القلب الحقيقي الذي تتجلىٰ فيه أنوار الحق تعالىٰ ـ كما يقول أهل المعرفة ـ: لذلك ينبغي لصاحب القلب المريض أن يعتبر نفسه ذا قلب ولكن دون أن يتوهم أنه قلبٌ حقيقيٌ[1]، فإن هذا الوهم يبقيه في أسر الغفلة ويدفعه إلىٰ سلب القلب من صاحبه الحقيقي وسجنه في أسر التعلقات:

صرخت بانك صاحب قلبٍ فلا حاجة لك بالغير لأنك أصل!

فحالك حال الماء الحبيس في الطين وهو يصرخُ: أنا ماءٌ حرٌ فلا حاجة لي للإتصال بالمدد

توهمتَ أنَّ هذا الملوث فيك قلباً فعزلته عن صاحبه الحقيقي[2].

من هنا نصل إلىٰ نتيجةٍ مفادها أن القلب المحروم من حياته الطيبة بسبب تراكم الحجب الظلمانية المتنوعة عليه، هو كالماء المحبوس في الطين، ولذلك فهو فاقد ـ في هذه الحالة ـ لمنزلته الأصلية ودوره الحقيقي، لذلك فهو ساقط عن مقامه الإلهي، فلا يبقىٰ منه سوىٰ اسمٌ بلا مسمىٰ، إذْ تُسلب منه جميع الكمالات[3]، ويستحوذ عليه الشيطان

---

(١) يبدو أن المقصود بالقلب الحقيقي هنا هو القلب السليم المطهر من الخبائث المعنوية الاعتقادية والعملية التي تحجبه عن صاحبه الحقيقي وهو الله جل وعلا، وهذا القلب السليم هو المعبّر عنه أيضاً بوصف القلب الحي.

(٢) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٣) ولكن يبقىٰ هذا القلب مستعداً للتحلي بهذه الكمالات إذا تخلص من أضدادها وتطهر من الخبائث المعنوية وتحمد من أسر الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، فالقلب مشتمل علىٰ ما أودعه الله عز وجل من استعداد للعروج إلىٰ مراتب الكمال ما دام علىٰ الفطرة السليمة غير المحجوبة، وللإمام الخميني ـ رضوان الله عليه ـ تحقيقات نافعة في هذا الباب أوردها في كتابه شرح حديث جنود العقل والجهل.

وجنوده ويسلبونه بشتىٰ الإغراءات كرامته ومقامه الأصلي ويحيطونه بأنواع الحجب.

حقيقة القلب محلُ تجلي أنوار الحق تعالى

إن لهذا القلب اللحمي الصنوبري الشكل الواقع في الجهة اليسرىٰ من البدن، والذي به تحيا الخلائق، روحاً روحانية في الإنسان لا توجد في غيره من المخلوقات، في الإنسان تُولدُ روح القلب قلباً آخراً للإنسان الذي تستقر فيه في مقام النور والصفا لكن مثل هذا القلب لا يوجد في كل إنسان. فالقلب في صورته الحقيقية الأصلية هو مظهر ومجلىٰ وجه الله تعالىٰ، ومهبط الأسرار الإلهية وأسرار الوجود وخلاصة سر الله، ويمكن مشاهدة أنوار التجليات الإلهية في وجه صاحب مثل هذا القلب:

ان قلب الرجل الإلهي مرآة تعكس صورة العالم،
ومحلٌ لتجلي أنوار جمال ذي الكبرياء

فإذا أردت مشاهدة هذه الأنوار فانظر الىٰ جمالها يتجلىٰ
في طلعةِ الرجل الإلهي[1].

إن أنشودة حقيقة القلب هي التي جذبت مثل علي بن سهل الأصفهاني وجعلته يطلب مشاهدتها، كما يعبّر عن ذلك بقوله: «إن الجميع يقولون من أعماق قلوبهم: يا ليتنا نرىٰ من شاهد «القلب»، لكي يخبرنا عنه ويصفه لنا»[2].

إن القلب الذي يطلبه علي بن سهل الأصفهاني ليس القلب الذي

---

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.
(٢) مصباح الهداية ومفتاح الكفاية (بالفارسية): ٩٧.

ترتهن قيمته بظاهره الحسن، بل الذي يرفع قيمته حسن باطنه، ولذلك نجده يقول: «لقد اشترىٰ عزيزُ مصر الجمال الظاهري وليس الباطني ليوسف، وكان جماله الظاهري الحسن والوسامة أما جماله الباطني فهو اللطف والنبوة، وإذا كان قد اشترىٰ جماله الباطني لما كانت الدنيا بأسرها جديرةً بأن تكون ثمنَهُ»:

عندما يكونُ القلبُ مخزناً لأسرار الحق تعالىٰ، فهو خلوة الروح عند سوق الحق تعالىٰ

ان القلب هو حصن حضرة أمين الأسرار، وهو مصنع خلق الإنسان الإنسان[1].

يقولُ الشيخ عز الدين محمود الكاشاني: «إن المقصود بالقلب في لسان الإشارة هو النقطة التي تتحرك بتحركها دائرة الوجود، وبها تصل إلىٰ الكمال ويتصل فيها سر الأزل بسر الأبد، ومبدأ النظر بمنتهىٰ البصر، فيتجلىٰ جمال جلال الوجه الباقي فيها وبذلك يصير القلب عرش الرحمان ومنزل القرآن والفرقان، والبرزخ بين الغيب والشهادة، وروح ونفس ومجمع بحرّي الملك والملكوت والناظر والمنظور»[2].

فالقلب هو مرآةُ ذاتِ ذي الجلال، والجمال الحق انما يتجلىٰ في القلب التقي

وهو - في عين السالك - عرشُ الرحمان، وكل العالم هو بمثابة الجسم والقلبُ هو الروح[3].

القلب عند المؤمن هو مثالُ عرش الرحمان، ولذلك قالوا: «قلب

---

(١) ترجمة نثرية لشعر فارسي.

(٢) مصباح الهداية ومفتاح الكفاية: ٩٨.

(٣) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

المؤمن عرش الرحمان»[1]، وحسب تعبير الشيخ الكاشاني فإن: «العرش هو القلب الأكبر في العالم الكبير، والقلب هو العرش الأصغر في العالم الصغير»[2]:

إن القلبُ هو محيط العرش ومركزه، ولولاه فما الفائدة المرجوة من الطين[3]؟!

من هنا فإن قلب المؤمن ـ الذي هو عرش الرحمان في العالم الصغير ـ سيكون محل نظر الرحمان، من هنا قالوا: «**قلب المؤمن مرآة نظر الرحمان**»[4]:

إن القلب الذي يكون عرش ومحل نظر الذات المقدسة الكريمة، هو مثل الذات المقدسة القديمة، لا منتهىٰ له ولا ساحل[5].

القلب الذي يكون عرش الرحمان ومحل نظره يصير وعاءً للتجليات والإفاضات الإلهية، كما يقول شيخ هرات الحبيب الخواجة عبد الله الأنصاري: «القلوب» أوعية الله في الأرض وأحبها إليه أصفاها وأنقاها»[6].

ومن معاني القلب أنه: «**خزينةُ الله**»، يقول خاتم مراتب الكمال ﷺ: «**ناجىٰ داود ربَّه قال: إلهي لكل ملك خزانة فأين خزانتك؟ قال جل جلاله: لي خزانة أعظم من العرش، وأوسع من**

---

(١) نقل ذلك الغزالي في إحياء العلوم عن سهل التستري، لاحظ المحجة البيضاء ٥: ٨.

(٢) مصباح الهداية ومفتاح الكفاية: ٩٨.

(٣) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٤) تفسير سورة يوسف: ٢٦١.

(٥) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٦) عدة الأبرار، ٦: ٣٧٠، والقول مقتبس من الحديث النبوي: «**إن لله تعالىٰ آنية وهي القلوب، فأحبها إليه أرقها وأصفاها وأصلبها**»، سفينة البحار للشيخ القمي ٢: ٤٤١.

الكرسي، وأطيب من الجنة، وأزين من الملكوت، أرضها المعرفة، وسماؤها الإيمان، وشمسها الشوق وقمرها المحبة، ونجومها الخواطر، وسحابها العقل ومطرها الرحمة، وأثمارها الطاعة، وثمرها الحكمة ولها أربعة أبواب: العلم والحلم والرضا، ألا وهي القلب»[1].

القلب الذي يصل إلىٰ هذا المقام يصل في الواقع إلىٰ حقيقة «القلب» ويستعيد سلامته ونقاءَه الأصليين، ويفوزُ بشرف: **«لا يسعني أرضي ولا سمائي، وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن»**[2]، يقول مولانا جلال الدين محمد ـ قدس الله روحه العزيزة ـ:

قال النبي: ان الحق تعالىٰ يقول: لا يسعني شيءٌ لا في العلو ولا في السفلي، لا السماء ولا الأرض ولا العرش فاعلم بيقين أن قلبَ المؤمن يسعني! فيا للعجب! ان أردت العثور عليّ فابحث عني في قلوب المؤمنين[3].

القلب إذا بلغَ هذا المقام يفوز بشرفِ أن يصبح بيت الرب ومطلع أنوار الحق ومنبع أسراره ولذلك قالوا: **«القلبُ بيتُ الرب»**[4]:

ما هو هذا القلب الذي يصير مطلع أنوار الحق تعالىٰ ومنبع أسراره؟
اذا صار القلب قلباً حُرِمَّ عليه ذكر غيره تعالىٰ، فهو يصير ـ لو علمتَ ـ «البيت الحرام»

---

(١) بحار الأنوار، ٧٠: ٥٩.
(٢) المحجة البيضاء ٥: ٢٦.
(٣) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.
(٤) راجع سفينة البحار ٢: ٤٤١.

بصير القلب . في الحقيقة . مرآةٌ للعالم يَظهر فيه كل
صغير وكبير، فاعرف ذلك[1].

لقد خاطب الله موسىٰ بالقول: «مرضتُ فلم تعدني، فقال: يا رب وكيف ذلك؟ قال: مرض فلان فلم تعده ولو عدته لوجدتني عنده»[2].

يقول الشاعر [ما ترجمته النثرية]:

كيف لم تزرني في مرضي وأنت الذي تعود المرضىٰ،
فأين غبت عني؟

وجاء في الإنجيل أيضاً: «... وكنت عطشاناً فلم تسقوني، وكنت غريباً فلم تستضيفوني، وكنتُ عرياناً ولم تكسوني، وكنتُ مريضاً وسجيناً ولم تزوروني... فيرد عليه الأشرار: متى حدث منا كل هذا... فيأتي الجواب: لأنكم لم تفعلوا ذلك مع المحتاجين فكأنكم لم تفعلوه معي...»[3]، ويقول مولانا أيضاً [ما ترجمته النثرية]:

أحطتُك بالنور الرباني وأنا الحق مرضت فلم تعدني!

قال: سبحانك! أنت منزه عن اللسان، فما هذا الرمز؟
فسره لي يا رب

فأعاد قوله: كنت مريضاً فلم تسألْ عن حالي، قال: يا
رب حاشاك عن النقص!! لقد ضل العقل فأزل
حيرته

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.
(٢) مروي في الكثير من المصادر، لاحظ صحيح مسلم ٨: ١٣، مسند أحمد بن حنبل ٢: ٤٤.
(٣) إنجيل متى، الباب ٢٥: ٤٥.

قال: أجل، لقد مرض عبدي الخاص، وهو أنا. فانظر بالبصيرة. ان عذره عذري ومرضه مرضي!

هذا هو المقام الحقيقي للقلب ولا يمكن لأحد بدون معرفته إدراك حقيقته، لأن حقيقة القلب ليست من هذا العالم[١]، بل هي غريبةٌ عنه مارة عليه مرور الطير في الهواء والسمك في البحر، وقد شبهوا حقيقةً القلب بهما، لأن الطير لا يستقر في مكان معين في الهواء، فهو في حركة مستمرة بين صعود وهبوط، وكذلك حال قلب المؤمن، فتارة يحادث الخلق وأخرىٰ يخاطب الرب، الطير يتنقل باستمرار بين هنا وهناك وكلٌ يطيرُ بجناحيه، وقلب المؤمن يطير بإقبال الحق تعالىٰ[٢]، فإذا غادر عشه سأله البدن: إلىٰ أين؟ أجابه: أطير في الهواء ما دام هواء، ثم ينتهي الهواء فيسأله: إلىٰ أين؟ فيقول: أطير في السماء ما دامت السماء، فإذا انقضت قال: أطيرُ في الفضاء ما دام الفضاء، فإذا انقضىٰ الفضاء سأله: إلىٰ أين؟ أجاب: إلىٰ الله، فإن القلب إذا صار عاشقاً هام يبحث عن وصال الله في الهواء والسماء والفضاء[٣]، وبسبب هذه الحالات والمقامات التي يتميز بها القلب وصفوه بقولهم: «**القلب أمير البدن**»[٤]:

---

(١) أي من العالم المادي المحسوس، فالقلب المقصود هنا هو اللطيفة الربانية الروحانية كما أسلفنا فهي من عالم الأمر الرباني.

(٢) إشارة إلىٰ التوفيق الرباني والجذبات الإلهية الخاصة التي تنزل علىٰ المتعرضين لها بالأعمال الصالحة فتفجر فيهم حركة دؤوبة في السير والسلوك إلىٰ الله وهي حركة متواصلة لأن مراتب الكمال لا حدَّ لها فكلما اجتهد الإنسان في جهاده في الله رقىٰ إلىٰ مراتب أعلىٰ.

(٣) تفسير سورة يوسف: ٢٥٢.

(٤) المصدر السابق: ٢٦٠، وهذا الوصف مستفاد من حديث الإمام الصادق عليه السلام حيث جاء في جانب منه: «إن منزلة القلب من الجسد بمنزلة الإمام من الناس الواجب الطاعة عليهم»، راجع سفينة البحار ٢: ٤٤١، وسيأتي مضمونه بصورة أكثر تفصيلًا نقلًا عن علل الشرائع للشيخ الصدوق.

أصل الإنسان ـ في الحقيقة ـ هو القلب نفسه، وجميع الأعضاء فروعٌ له[1].

وقد بدأ أهل السلوك جميعاً من أمير البدن ـ وهو القلب ـ، لأن نور اليقظة يتجلىٰ فيه أولًا بأنوار الحق، فإذا تنور القلب، تنور البدن[2].

حواس القلب:

إن شأن القلب ومنزلته رهينة حقيقتِهِ، وظهور حقيقته ـ التي ترتبط بها حقائق البدن ـ رهينٌ بسلامة القلب، وسلامتُهُ في صفائِهِ، وصفاؤهُ في سلامة حواسه. وللقلب حواس خمسٌ مثلما أن للبدن حواساً خمساً، يقول مولانا جلال الدين محمد الخراساني ـ قدس الله روحه العزيزة ـ [ما ترجمته النثرية:

وراء هذه الحواس الخمس، توجد حواسٌ خمسٌ أخرىٰ هي كالذهب إذا كانت هذه كالنحاس،

فمن يشتري النحاس بسعر الذهب في سوق كسالىٰ المحشر؟!

حواس البدن تقتاتُ من الظلمة وحواس القلب تقتاتُ من نور الشمس.

إذا مرضت أي من هذه الحواس، ترك مرضها آثاراً سيئة وأحياناً خطيرة للغاية، لأن جميع الجوارح والأعضاء، جنود القلب ويعملون

---

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٢) يعني أن عملية التطهير والتزكية ينبغي أن تبدأ من القلب الذي بصلاحه تصلح سائر الجوارح في عملها.

بأمره ـ كما أسلفنا ـ. ولتوضيح الأمر وإدراكه ينبغي أن نمهد له بعدة مقدمات نترك البحث والخوض فيها إلىٰ القراء الأعزاء لأننا التزمنا بمنهج الاختصار في هذه الرسالة، لذا نكتفي هنا بذكر بعض الأمور الضرورية بشأن كل واحدة من حواس القلب الخمس:

عين القلب

مما لا شك فيه أن لمشاهدة الحقائق المخفية خلف الحجب العديد من المراتب لأن لهذه الحقائق نفسها العديد من المراتب، فإنّ لعوالم ما فوق المادة درجات مختلفة ولكل منها حقائق خاصة بها. ففوقَ عالم المادة توجد عوالم المثال أو البرزخ والملكوت السفلي، وهي أيضاً ذات مراتب ودرجات كثيرة بعضها فوق بعض وهي فوق العوالم السابقة، وذكروا أنه توجد فوق عوالم التجرد عوالم الأسماء الحسنىٰ والتجليات الإسمائية للحق تعالىٰ، ولا بأس أن نشير هنا ـ علىٰ نحو التذكير ـ أن كل عالم هو حجاب للعالم الذي فوقه في القوس الصعودي، ورؤية كل عالم من العوالم العلوية تحتاج إلىٰ عينٍ تناسبه، وبالطبع فليس المقصود العين الظاهرية بل العين الباطنية أو عين القلب، المشار إليها في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1]، أو في قوله تعالىٰ في وصف الكافرين: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[2]، فالقرآن يعتبر أن الإنسان الذي يرىٰ الغيب هوا لذي يحظىٰ بالعلم الخاص كما يشير لذلك قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾[3].

---

(١) الإسراء: ٧٢.
(٢) الحج: ٤٦.
(٣) التكاثر: ٥ ـ ٧.

نحن نعلمُ أن من غير الممكن رؤية جهنم بالعين العادية، فالمقصود هو عين القلب القادرة على خرق الحجب ومشاهدة ما ورائها، ولا شك في أن أبصار أهل المعرفة التي خرقت حجب القلب ترىٰ جهنم ومَن لا يراها من غيرهم فعين قلبه عمياء:

ان كنت أعمى فليس على الأعمى حرج، وإلا فعليك بالصبر فإنه مفتاحُ الفرج

ان بلسم الصبر يزيحُ الحجب عن الأبصار، يحرقها ويشرح الصدر

اذا صفت وتطهرت مرآة القلب ظهرت فيها الصور خارقة حجب الماء والطين

عندها ترىٰ الصور وترىٰ مصورها، وترىٰ عرش السلطنة مع صاحب العرش[1].

يصرح عليٌّ أمير المؤمنين عليه السلام بأن الذي يصل إلىٰ مقام الانقطاع الكامل ويصبح من أهل الذكر والإقبال، يرىٰ كل مظاهر هذه العظمة [المشار إليها في الشعر المتقدم]، فهو يقول في وصف أهل الذكر والربانيين: «**فكأنما قطعوا الدنيا إلىٰ الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحققت القيامةُ عليهم عِدائِها، فكشفوا غِطاءَ ذلك لأهل الدنيا حتىٰ كأنهم يرون ما لا يرىٰ الناس ويسمعون ما لا يسمعون**»[2].

ويقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**ألا إن للعبد أربع أعين: عينان يبصرُ بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر**

---

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٢) تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون: ٨٦٦، الخطبة ٢٧٢ من نهج البلاغة.

آخرته. . .»[1]، وعمىٰ القلب أسوء أنواع العمىٰ كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: شر العمىٰ عمىٰ القلب»[2].

مشاهدة كل عالم من العوالم العلوية ـ عالم المثال وما فوقه ـ تحتاج إلىٰ عين قلبية خاصة به يمكن بها إدراك بواطن الأشياء والناس وقلوبهم وأحوالهم الباطنية والاطلاع علىٰ ما يجري فيها. يقول مولانا [ما ترجمته النثرية]:

ان المتقي لم يطلع علىٰ حاله وحده وحسب بل اطلع علىٰ أحوال المغارب والمشارق.

أما إذا فقد القلب حاسة بصره فهو عليل يجب علاجه، كما أن كل عين قلبية انفتحت عند إزاحة الحجاب القبلي فهي عمياء تجاه ما وراء الحجاب اللاحق، فيجب رؤية ما وراء هذا الحجاب بعينٍ قلبيةٍ أخرىٰ تحظىٰ بقوةٍ بصريةٍ أشد. ولا يكون للباطن أكثر من عينين لأن الإمام سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام قد حدد له عينين[3]،

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٥٣ وتتمة الحديث الشريف هي: «. . . فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه فابصر بهما الغيب وأمر آخرته، وإذا أراد به غير ذلك ترك القلب بما فيه. . .». ويُستفاد من هذا الحديث وحديث الإمام علي عليه السلام المتقدم، أن حواس القلب هي قوىٰ إدراكية خاصة لها شبه بعمل وإدراكات الحواس الظاهرية ولكن في إدراك الحقائق الغيبية التي لا يمكن للحواس الظاهرية إدراكها، وهي حقائق الغيب وعوالم الملكوت ولإدراك هذه الحقائق تأثير مهم في سير الإنسان علىٰ الصراط المستقيم وسلوكه الطريق المؤدي إلىٰ لقاء الله عز وجل ومعرفته وعبادته الحقة، ولذلك فإن فقدانها هو الحرمان الحقيقي وشر العمىٰ لأنه يحرم الإنسان من كماله المقدر له.

(٢) بحار الأنوار ٧٠: ٥١.

(٣) قد يكون مقصود الإمام عليه السلام أن كلّ عين من هاتين العينين تبصرُ في دائرة معينة من عوالم الغيب والملكوت والآخرة، دون أن يقصد التفاضل بينهما في المراتب، وعلىٰ هذا فلا مانع من أن يكون لكل عين منهما مراتب في درجة البصيرة تتناسب مع درجة طهارة القلب وقرب الإنسان من الله تبارك وتعالىٰ.

ولكن ينبغي الالتفات إلىٰ أن تعدد العيون هنا ليس عددياً، بل المقصود وهو تعدد الآثار الابتدائية وعلىٰ أساسها ذكروا لها عدداً، وأعلىٰ مراتبها هي المرتبة التي يمكن فيها النظر إلىٰ وجه الله. والسالك الطالب الوله المبتلىٰ بالفراق حيثما نظر رأىٰ جمال الحبيب الجميل جلَّ وعلا خالياً من كل التعلقات، يقول الشاعر بابا طاهر الهمداني [ما ترجمته النثرية]:

أنظرُ إلىٰ البحر فارىٰ طلعتك، وأنظر إلىٰ الصحراء فلا أرىٰ غير طلعتك.

أذن القلب

نعلمُ أن للإنسان في المرتبة الدنيا لحياته سمعاً خاصاً بها، وعلىٰ السالك ـ بعد يقظته الحاصلة له بلطف الله وتفضله عليه دون علة سابقة، إذْ يشرق نور اليقظة في قلبه ويوقظه من نوم الغفلة ـ أن يجتهد بعد هذا اللطف في السعي لاكتساب حالة انقطاع القلب وتجريده، لكي يحصل علىٰ مراتب أعلىٰ من البصر والسمع ببركةِ تجليات أنوار الحبيبِ ـ جلَّ وعلا ـ.

في المراتب الدنيا تطرق السمع ـ في اليقظة والمنام ـ أصوات متنوعة من خلف الحجب لا يمكن تحديد ضوابط أو حدود واضحة لها، لأن لسالكي طريق الحبيب الحق حالات متنوعة، وما يمكن تشخيصه هنا هو إيحاءات الشيطان وجنوده، وهذا أيضاً إنما يقدر عليه الإنسان الكامل، ولكن الأمر الذي يمكن التذكير به هنا وبنحو الإشارة هو أن النغمات والأصوات المسموعة يبدو أنها إشارات وبشارات وحكايات هادية ينبغي للذي أشعَ في قلبه نور اليقظة أن يستهدي بها في طريق السلوك، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إن للقلبِ أُذنين: روح**

الإيمان يسارُهُ بالخير، والشيطانُ يسارُهُ بالشر، فأيهما ظهر علىٰ صاحبه غلبَهُ»[1].

ما سيوصله هو الىٰ البصر: جمالٌ وكمالٌ ودلالٌ، وما
سيوصله الىٰ السمع هو سماعٌ وبشارة وتحريك
ورغم أنك الآن غافلٌ عن كل ذلك لكن الحق تعالىٰ
سيريك كل ذلك عياناً عند اللزوم[2].

إن كل حجاب يغلف القلب يغطي بلا شك إحدىٰ حواسه ويحجبها عن ظهور فاعليتها، فمثلًا يجب إزاحة حجاب السمع القلبي لكي يمكن للإنسان السماع بقلبه، ومثل المرض الذي يصيب القلب ويصم أذنه هو بالضبط مثل القطنة التي توضع في الأذن الظاهرية وتصمها: فدخول الحجاب السمعي علىٰ القلب هو كوضع القطنة في الأذن الظاهرية، يمنع من السماع، يقول مولانا [ما ترجمته النثرية]:

أزِحْ القطنة الصامة عن أذن الروح، وأرفع عصابة العمىٰ
الحسي عن عينك،
فانت أصمُّ الباطن إذا لم ترفع قطنة هذه الأذن.

شامة القلب

بعد تجلي نور اليقظة يصبحُ المستيقظ بنفسه يقظاً بالله، فيقوم بواجب السلوك، ومنازل السائرين ومقاماتهم متتابعة مستمرة إلىٰ منتهىٰ منزل الحبيب أي «السرادقات»[3]، ولكل منزل خواصٌ ظاهرية وباطنية

---

(1) بحار الأنوار ٧٠: ٥٣.

(2) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(3) السرادقات جمع السرداق وهو كل ما أحاط بشيءٍ... والأصل هو ما يحيط بالخيمة وله باب يدخل منه إليها، وقيل هو ما يمدُ فوق البيت... وفيه سرداق الجلال وسرداق العظمة ونحو ذلك والجميع علىٰ نحو الاستعارة. راجع مجمع البحرين للشيخ الطريحي: ٤٠١ من =

متناسبة مع مقتضياته، ويتجلىٰ في كل منزلٍ نوره الخاص علىٰ قلب السالك ويؤثر علىٰ حواسه ومشاعره، ويحظىٰ السالك ـ في هذا السير والسلوك ـ بالحصول علىٰ أنواع النعم الملكوتية، فينتشي بهذا الفيض العظيم، ويمكن ملاحظة آثار هذه النشوة علىٰ مشاعره وحواسه، فمثلاً يتمتع السالك ـ في هذه المرتبة ـ بشامةٍ أقوىٰ يدرك بها ـ وبكل كيانه ـ النفحات الرحمانية، يشم بها الروائح البرزخية بدءً ثم النفحات الرحمانية، فتحكي له من الأسرار والحقائق ما لم يكن علىٰ أبسط معرفة به من قبل، فتنفتح للسالك الطالب الوله مع كل رائحةٍ ومع كل نفحةٍ بابٌ وتنكشف له حقيقةٌ من الحقائق.

ولا يخفىٰ أن لإدراكات هذه الحاسة الشامة مراتب عدة ـ مثلما هو الحال مع حاستي السمع والبصر ـ، فالسالك الطالب الذي يحظىٰ بشامة أسمىٰ يشم نفحات وروائح مقامات أسمىٰ، وإن ذكرىٰ رائحة الرحمان الآتية من اليمن والتي فتحت باباً لطيفة للغاية ومهمة وذات مكانة متميزة في سلوك أهل المعرفة؛ تعبّر عن أسمىٰ وأعظم آثار الحاسة الشامية القلبية. لقد جاء أويس القرني من اليمن إلىٰ المدينة لزيارة النبي الخاتم ﷺ ثم رجع دون أن يحظىٰ بهذه الزيارة، وعندما عاد رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة قال: **«إني لأجدُ نفس الرحمان من جانب اليمن»**[(١)].

لقد ذبل القلب من برودة ريح أهواء النفس، وإني

= الطبعة القديمة، ويبدو أن المقصود هنا هو الوصول بالسير والسلوك إلىٰ منزل تجلي الأسماء والصفات الإلهية بأعلىٰ ما يمكن للإنسان السالك إدراكه من سعة إحاطة الجلال والجمال والعظمة الإلهية.

(١) شرح منازل السائرين للشيخ عبد الرزاق الكاشاني: ٤٨٤ طبعة قم وقريب منه ما في مسند أحمد بن حنبل ٢: ٥٤١.

لأرجو أن يأتيني نفس الرحمان من صوب اليمن[١].

ويُحكىٰ أنه: «ابتلي «أياز» بألم في عينه اشتد عليه لاحقاً إلىٰ درجة، كان يُغمىٰ عليه أحياناً فلا يشُعر بما حوله، أخبروا السلطان محمود بالأمر، فجاء إليه علىٰ فور وأَمَر أن لا يخبروا «أياز» بقدومه، ثم جلس عند سريره، فنهض أياز فوراً وقبل أن يراه، وفتح عينيه وجلس وقد غمره السرور، فسألوه: أيها الضعيف الذي استحوذ عليه الإغماءُ كيف نهضت قبل أن ترىٰ الملك، ونسيت ألمك وقمت بأدب الحضور عند السلطان؟ أجاب: لا حاجة لي بالنظر والسماع، فقد تحررت بعشقه وقربه من سمعي وبصري، فروحي حية ببركة رائحته، إنْ كانت شدةُ الألم قد أماتتني فقد أحياني شَمُ رائحته مثلما أبصر يعقوب النبي ببركة شم رائحة قميص يوسف»[٢].

ذائقة القلب

إن القلب الذي يصبح مهبطاً للتجليات الربانية ومعدناً للفيوضات السبحانية، يحظىٰ أيضاً بذوقٍ وذائقة قلبية أسمىٰ، فيحسُ ـ بما يتناسب مع ما اكتسبه من طهارة باطنية ـ بحلاوة الأنس واللذة من الطعام والشراب الإلهي والباطني، يقول سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليه السلام: **«يا مَنْ أذاق أحبائَهُ حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين»**[٣]، ويقول الإمام سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام: **«إلهي مَن ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً»**[٤]، ويقول أيضاً: **«. . . وقضيتَ لهم من فضلك المأرب وملأت ضمائرهم من حبك**

---

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٢) كتاب (مسافر سرگشتة = المسافر الحائر) بالفارسية: ٩٩.

(٣) من دعائهِ عليه السلام في يوم عرفة.

(٤) مناجاة المحبين من المناجات الخمسة عشر المروية عن الإمام السجاد عليه السلام.

وورويتهم من صافي شربك فبك إلىٰ لذيذ مناجاتك وصلوا»[1]، ويقول: **«ما أطيبَ طعم حبك وما أعذب شرب قربك»**[2]، ونقرأُ في الأدعية المأثورة: **«أذقني برد عفوك»**[3].

حاسة القلب اللامسة

يقولُ عارف زاهد انطلق من صحراء خراسان وبلغ هذا المقام وذاق روح الحقائق: «القلبُ عينُ الإنسان وبصيرة الروح، إذا نزعَ إلىٰ البدن أبصر بعينه وسمع بأذنه وأحس بلامسته، فعرف بها العالم ودبر بها شؤونه. وإذا اهتم بأمر نفسه جعل حاله حال النهر الجاري بانسياب، وإذا حلق في معارج الذرىٰ صار كل شيءٍ وغرق في بحر السعادة وتسمىٰ بجميع الأسماء الإلهية وصار مظهراً لجميع الأنوار»[4].

وتنشط في هذا المقام الذي تحدث عنه هذا العارف، جميع الحواس القلبية الخمس، ومنها حاسة اللمس، فيلمس السالك في البداية ـ الحقائق في اليقظة أو النوم، وللمس هذه الحقائق مراتب عديدة أيضاً خاصة بها.

وكل ما قلناه هنا عن حواس القلب لا يتجاوز الواحد من الألف من شؤونها، يقول سيدنا الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**لما أسري بالنبي** صلى الله عليه وآله قال: يا رب ما حال المؤمن عندك؟ قال: يا محمد مَن أهان لي وليّاً فقد أرصد لي بالمحاربة، وأنا أسرع شيء إلىٰ نصرةِ أوليائي. . . [إلىٰ أن قال:] **وإنه ليتقرب إليّ بالنافلةِ حتىٰ أحبه، فإذا**

---

(١) مناجاة المريدين.

(٢) مناجاة العارفين.

(٣) في مناجاة التائبين: «ولا تخلني في مشهد القيامة مِن برد عفوك»، وفي مناجاة الزاهدين: «وأذقنا حلاوة عفوك».

(٤) كتاب (صالحية) بالفارسية، تأليف الشيخ الحاج علي نور علي شاه الكنابادي.

أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته»[1].

من هنا يجب الاهتمام بحفظ القلب وحراسته فهو مهبط أنوار الحق تعالىٰ، فيجب منع دخول أي وارد ملوث يؤدي إلىٰ حجبه إليه، لأن حواس القلب المريض تُصاب بأمراضه التي تسلبه مكانته الباطنية المعنوية والحقيقية، فلا يسمع صاحبه حينئذ شيئاً من وراء الحجب، ولا يبصر شيئاً ولا يشم شيئاً ولا يلمس شيئاً ولا يذوق شيئاً:

قف حارساً علىٰ باب القلب دوماً ولا تسمح لغير الحبيب أن يدخله يوماً[2].

إن سلامة وصحة الحواس القلبية هي التي تُمكن الإنسان من الإطلاع علىٰ الحقائق الكامنة خلف الحجب، فيراها ويسمعها ويشمها ويلمسها ويذوقها، وهذه السلامة والصحة رهينة بتمزيق وخرق الحجب الباطنية وهدم البدن:

الحس الدنيوي سلم لمقاصد عالم الدنيا، والحس الأخروي سلم العروج الىٰ السماء
فاطلب سلامة هذا الحس من الطبيب، واطلب سلامة ذاك الحس من الحبيب (سبحانه وتعالىٰ)
ان سلامة هذا الحس تكون بأعمار البدن، وسلامة ذاك الحس تكون بهدم البدن[3].

إذا ابتلي القلب وحواسه بالمرض وأحاطتها الحجب النفسانية،

---

(١) الحديث مروي من طرق الفريقين، راجع كتاب منتخب الأحاديث القدسية: ٤٥ ـ ٤٦ من إصدارات منظمة الإعلام الإسلامي في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

(٢) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٣) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

نشط الشيطان وجنوده في القيام بأعمال التخريب وأصابوا البدن بأنواع الأمراض وتحولت أعضاؤه وجوارحه ـ كرهاً ـ إلىٰ خدم للشيطان وجنوده، فلا يصدر عنها إلا ما تهواه النفس الأمارة بالسوء والشيطان. وهذا ما يشير إليه سيد الكائنات محمد المصطفىٰ صلوات الله عليه حيث يقول: «**إن في جسد ابن آدم لمضغةٍ إذا صلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد، ألا وهي: القلب**»[1]، ويقول ﷺ في حديث آخر: «**إذا طاب قلبُ المرء طاب جسده، وإذا خبث القلب خبث الجسد**»[2].

وما أجمل ما أنشده النشوان بالشراب السبحاني مولانا محسن الفيض الكاشاني ـ قدس الله روحه العزيزة ـ [ما ترجمته النثرية]:

كيف يمكن أن يكون للغم محلاً في قلبٍ تسكنه أنت، وقد أصبح عماد مسند حنانه[3]؟!

ان مأوىٰ الغم هو القلب الذي لا يعرفك، أما اذا صار القلب مسكنك فكيف يبقىٰ فيه الغم؟!

إن الأجنبي هو الغافل عنك، أما مَنْ كنت أنتَ أنيسه فكيف يكون أجنبياً؟!

والمجنون هو الذي لم يذق حلاوة حبك، أما الذي أحبك فكيف يكون مجنوناً؟!

---

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٥٠.

(٢) بحار الأنوار ٧٠: ٥١.

(٣) مسند حنانه، إشارة إلىٰ جذع كان في مسجد النبي، وكان ﷺ يستند عليه حينما يخطب، وقد روي أنه عندما صنعوا للنبي منبراً كان يجلس عندما يخطب حنّ هذا الجذع وبكىٰ اشتياقاً له ﷺ، راجع مجمع البحرين للطريحي: ٥٠٥.

إن العاقل هو الذي فاز بمعرفتك، أما غير العارف فكيف يكون عاقلاً؟!

إن الجوهرة هو القلب المحفوظ في صدف الصدر، فكيف يمكن اعتبار الحجر الخالي من الروح جوهرة؟!

فالقلب الذي رأى تلك الطلعة النيرة وذاق حلاوة حب الله، كيف يمكن أن يسكنه الأغيار؟!

والقلب الذي أحبك، كيف يرى غيرك؟! والقلب الذي تسكنه كيف يمكن أن يكون معبداً للأوثان؟!

إذا أشرق نورك على قلب، وجد هذا القلب طريقه إليك، والشمعة التي تدور حولها الحور كيف تجد عندها الفراشة؟!

وفي القرآن الكريم آيات عدة بهذه المضامين[1]، وعلى أي حال يجب التوجه إلى تربية القلب لكي يتبرأ من كل ما سوى الحق تعالى، ولذلك اعتبر إبراهيم الخليل نفسه مريضاً عندما نظر إلى ما سواه عز وجل: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[2] ولأنه شفي بلطفه تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[3] لذلك توجه إلى حضرة الحبيب وتبرأ من كل ما سواه تعالى.

جلوات القلب ومظاهره:

يطلق على جلوات القلب ومظاهره تعبير «أطوار القلب»، ولكل

---

(١) راجع مثلاً: الشعراء: ٨٩، الأعراف: ١٧٨، البقرة: ١٦٦، الحج: ٤٦.
(٢) الصافات: ٨٨ ـ ٨٩.
(٣) الشعراء: ٨٠.

طور منها معدن وجوهر خاص، قال سيد الكائنات صلوات الله عليه: **«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»**[1]، وفي هذا الحديث الشريف عجائب كثيرة ومعانٍ لا تُحصىٰ، كما يشير لذلك الشيخ نجم الدين الرازي ـ قدس الله روحَهُ العزيزة ـ: «إعلمْ؛ أن القلب مثال السماء في الإنسان والجسد مثال الأرض فيه، لأن شمس الروح تشرق من سماء القلب علىٰ قالب الإنسان وظاهره وتنوره بنور الحياة، ومثلما أن للسماء سبع طبقات وللأرض سبعة أقاليم، كذلك حال القلب له سبعة أعضاء، كما أن للقلب سبعة أطوار هي بمثابة طبقات السماء: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[2].

ومثلما أن لكل إقليم من أقاليم الأرض خصوصية خاصة وتخرج منه أجناس لا تخرج من الأقاليم الأخرىٰ، كذلك حال أعضاء الإنسان، فلكلٍّ منها خصوصية وأفعال لا تصدر عن غيره، فالبصر يكون بالعين والسمع بالأذن والنطق باللسان...

ومثلما أنّ في كل طبقة سماوية منزلًا لأحد الكواكب السيارة السبعة، كذلك حال أطوار القلب فكل منها معدن جوهر خاص به[3].

الطور الأول:

وهو الذي سموه «الصدر» وهو معدن جوهر الإسلام: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[4]، فكل قلبٍ محروم من هذا النور محجوبٌ بظلمةِ الكفر: ﴿مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾[5]، والصدرُ هو

---

(١) مسند أحمد ٢: ٥٣٩.

(٢) نوح: ١٤.

(٣) كتاب (مرصاد العباد) بالفارسية: ١٩٥.

(٤) الزمر: ٢٢.

(٥) النحل: ١٠٦.

جلد القلب لذلك فهو في معرض هجوم وساوس الشيطان: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[١]، ولذلك فلا سبيل للوساوس الشيطانية إلى القلب وهو «خزينة الله»، لأن القلب هو الحرم الإلهي الخاص الذي لا يُسمح لأحدٍ بدخوله:

لا يتسع قلبي لغير الحبيب، فهو خلوة السلطان التي لا تتسع لغيره

ثمة سلطانٌ واحدٌ لا غير في قصر قلبي، إذا خرج برحاله منه لم يسعه برٌّ ولا بحر[٢].

ومثلما لا يسمح للشيطان بدخول السماء لأنها حرم الملائكة: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾[٣]، فكيف يمكن السماح للشيطان بدخول القلب وهو حرم الحق جلّ وعلا؟! ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[٤].

الطور الثاني:

وقد سموه «القلب» وهو معدن الإيمان: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾[٥]، وهو محل العقل أيضاً: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[٦].

الطور الثالث:

وهو «الشغاف»، وهو محل رحال العشق ومعدن المودة والشفقة

---

(١) الناس: ٥.
(٢) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.
(٣) الحجر: ١٧.
(٤) الحجر: ٤٢.
(٥) المجادلة: ٢٢.
(٦) الحج: ٤٦.

علىٰ الخلق: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[1]، ولا يتجاوز حب هذا الطور، بل هو مقيم في هذه الحضرة، ولهذا الطور خمس درجات: الأولىٰ، امتثال أمر الحبيب، الثانية: حفظ الباطن من غير الحبيب، الثالثة: معاداة أعداء الحبيب، الرابعة: حب محبي الحبيب، الخامسة: إخفاء الحالات الجارية بين العاشق والمعشوق[2].

الطور الرابع:

وهو الذي سموه «الفؤاد» وهو محل مشاهدات الحق تعالىٰ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[3].

الطور الخامس:

وهو الذي سموه «حبة القلب»، وهو المشرّفُ بشرفِ المحبة الإلهية، والسالك يتمنىٰ في هذا الطور وصال جمال الجميل، وهذا الطور يكون بيت التمني للحبيب:

جعلنا بيت القلب محلًا لتمني وصالك، فأوقدنا فيه مصباحاً من طلعتك الجميلة

تحملنا جميعاً وَلَهَ العشق بشوقٍ، فصرنا متعلقين بذؤابتك الساحرة

رأينا اللب والعقل قد ابتعدا عنا بأميالٍ، مُنذ ذلك اليوم الذي رأينا طلعتك من بعيد[4].

وطور القلب هذا هو محل خلوة حب الله، وفيه تتجلىٰ الأنوار

---

(١) يوسف: ٣٠.

(٢) كتاب (الكشاف) بالفارسية: ٦٥.

(٣) النجم: ١١.

(٤) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

الإلهية ويصبح القلب متجلياً بتجليات الحبيب عندما يتنزه ويتطهر من أرجاس الطبيعة:

إن قلبك هو محل خلوة حب الحبيب، وروحك مرآة طلعته

فاجعل المرآة نقية صافية، واجعل القلب خالياً فهو محل النظر الخاص لحضرة الحبيب[1].

ولا يتسع القلبُ في هذا الطور لغير حب الحبيب ـ جل وعلا ـ وحبِّ خواص مقربي حضرته المعتكفين عند أعتابه:

لا يتسع وجودنا لهوىً آخر، ولا يتسع هذا الرأس لغير هذا العشق والوله[2].

لقد سألوا إبراهيم الخليل: لماذا انقطعت بقلبك عن الجميع فخسرت الجميع؟! أجاب: إن سلطان الخلة قاهرٌ لا يبقي محلًا لغيره[3].

الطور السادس:

وهو المسمىٰ «سويداء القلب»، وهو معدن المكاشفات الغيبية والعلوم اللدنية التي يتلقاها العبد من الله بدون واسطة: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةً

---

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٢) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٣) الخلة تعني المودة والصداقة، وإذا كانت بضمّ الخاء فهي مودة متناهية في الإخلاص وصداقة قد تخللت القلب وصارت خلاله أي باطنه، ومعنىٰ اتخذ إبراهيم خليلًا أي مختصاً به و.. عبارة عن اصطفائِهِ واختصاصه بكرامة تشبه مكانة الخليل عند خليله، مجمع البحرين: ٤٣٤. والخلة في مصطلح أهل السلوك أعم من المحبة ولذلك فإن مقام المحبة أعلىٰ من مقام الخلة عندهم.

﴿مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[1]، وهو منبع الحكمة الربانية وكنز الأسرار السبحانية ومحل الأسماء: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[2]:

لقد سلبنا غم فراقك الوعي، ولسعَ ألمُ وجدك سويداء قلوبنا

ان عشقك هو السر الذي طرق أسماع قلوبنا ولكن «المقدسين» محرومون منه[3].

الطور السابع:

وهذا الطور قد ذكره بعض مشائخ أهل السلوك قبل طور السويداء[4]، ولكن أكثر أصحاب أرباب المعرفة عدوه الطور السابع وسموه «مهجة القلب»، وهو طور استقرار أنوار الحق تعالىٰ ومعدن ظهور الصفات الربوبية، واعتبروا الصدر باباً لهذا الطور كما أشرنا لذلك، وملخص الأمر أنهم اعتبروا هذا الطور محل أنوار الربوبية:

شع نور جمالك في قلب التيقظ فأزاحَ عن مرآة الكون ظلمات الأغيار

لقد أحرق الأغيار جميعاً بغيرته الحارقة ذاك المنادي بنداء: لمن الملك؟ للواحد القهار[5].

أسفار القلب:

للسالكين إلىٰ ديار الحبيب بقدمِ القلب أربعة أسفار، الأول:

---

(١) الكهف: ٦٤.

(٢) البقرة: ٣١.

(٣) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٤) يعني الشيخ الكنابادي في كتابه (صالحية) بالفارسية: ١٥٠.

(٥) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

السفر من الخلق إلىٰ الحق، الثاني: السفر بالحقِ في الحق، الثالث: السفر من الحق إلىٰ الحق، الرابع: السفر بالحق في الخلق[1].

السفر من الخلق إلىٰ الحق: في هذا السفر ـ الذي سموه أيضاً «السير إلىٰ الله» ـ لا يرىٰ السالك الوله الطالب للوصال سوىٰ الخلق، وهو يسعىٰ إلىٰ رفع حجاب الخلق الذي يحجبه عن محبوبه الحق، سائراً في طريق الإعراض عن كثرة الموجودات والتوجه إلىٰ الحقيقة وعالم الوحدة، وعبور منازل النفس بهدف الوصول إلىٰ «الأفق المبين» وهو نهاية مقام القلب ومبدأ التجليات الإسمائية.

السفر من الحق إلىٰ الحق: وهو المسمىٰ أيضاً «السير في الله أو في الحق»، وفيه يرىٰ السالك الوله الخلقَ في الحق، وعليه أن يسعىٰ في إزالة أشكال التعينات والحجب، لكي يسير في رحاب الأوصاف والأسماء الإلهية، إلىٰ أن يرىٰ نفسه ـ تدريجياً ـ غارقاً كقطرة الماء في البحر المواج لعظمة الأحدية وجلالها، فيزول حجاب «الأنا». يحكىٰ أنه: «عندما وصل يعقوب إلىٰ مصر للقاء يوسف، احتضنه يوسف بقوة، ولكنه رغم ذلك كان يصرخ: أين يوسف؟ هل لا زالَ في غياهب الجب؟! فقالوا له: ماذا تقول؟ إن يوسف يحتضنك! لقد عرفت رائحته من القميص وأنت في كنعان، فكيف تقول الآن: أين يوسف، وهو في حضنك؟ أجاب يعقوب: في ذلك اليوم كنتُ «يعقوب» الذي يشمُ قميص يوسف، فكان الجميع في «أناي» أما اليوم فكل الأمر في «يوسفي»، ولا أرىٰ يوسفاً آخراً»[2].

---

(١) الأسفار الأربعة (الحكمة المتعالية) للمولىٰ الحكيم المولىٰ صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي ١: ٢٠٠ من المقدمة.

(٢) كتاب (إلهي نامه) بالفارسية: ٢٨٠، ومثل هذه الحكاية التي نقلها المؤلف في طيات كتابه هي من باب التمثيل لتوضيح الحقائق السلوكية التي يذكرها وكتاب (إلهي نامه) هو من تصنيف الشيخ العارف فريد الدين العطار.

في هذا السفر، يهجر السالك وجوده الوهمي الخاص ـ وهو علة البلاء الخالد ـ بهدف الوصول إلىٰ منزل فناء «الأنا»؛ وهذا المقام هو تاج سادة المتحررين؛ وفيه يتخلص من «موضع الاثنينية»، لأنه يكون قد وصل إلىٰ «بلوغ التوحيد»، يحكىٰ أنه: «سألوا المجنون يوماً: ما هو مقدار حبك لليلىٰ؟ فأقسمَ بالعرش والكرسي أنه لا يحبها! فقالوا: إذاً ما هو سر إعراضك عن الطعام والنوم وهيامك علىٰ وجهك في الجبال والصحاري؟ أجاب: لقد انقضت كل هذه الأحوال، لقد أصبح المجنون وليلىٰ شيئاً واحداً»[1].

السفرُ بالحقِ في الحق: في هذا السفر يخرج السالك من وجوده الذاتي ويذهل فانياً عن نفسه ويضمحل عنده كل ما سوىٰ الحق تعالىٰ ويرىٰ الجميع واحداً، وفيه تتحولُ صفات الإنسان إلىٰ صفات إلهية، يقول مولانا [ما ترجمته النثرية]:

لا سبيل لأحد الىٰ حضرة الكبرياء ما لم يحصل له الفناء.

في هذا السفر يزيل السالك ما فيه من الصفات المذمومة ويجتهد في ترسيخ الصفات الحميدة، لكي يتنزه عن كل ما فيه رائحة النفس المخزية، فيتخلىٰ من الجسدية المادية لكي يصبح «روحاً» بكل كيانه:

لقد آنَ الأوان لكي أتعرىٰ وأعرض عن الجسد لكي أصبح روحاً بكل كياني[2].

---

(1) المصدر السابق: ٢٨٢، ولا يخفىٰ أن المقصود هنا ليس الإتحاد المادي بمختلف مراتبه بل هو نوعٌ من الاتحاد المعنوي، المعبّر عن اضمحلال استقلالية الإنسان في إرادته عن الإرادة الإلهية، أي أنه يصبح موجوداً إلهياً وخليفة لله جل وعلا، ينظر بعين الله ويبطش بيده جل جلاله كما ورد في الحديث القدسي الذي تقدم نقله، بمعنىٰ أن جميع حركاته وسكناته تصدر عن الإرادة الإلهية، فيكون موحداً لله عز وجل بكل وجوده لا يعبد ـ بالمعنىٰ الواسع للعبادة ـ سواه جلّ وعلا ولا يتبع أي سبيل غير سبيله جل جلاله.

(2) ترجمة نثرية للأبيات بالفارسية.

سألوا الشبلي يوماً: مَن كان أول مَن ودعته في طريقك السلوكي؟ أجاب: رأيتُ كلباً يقفُ علىٰ حافة الماء وهو يتلظىٰ من العطش، لكنه كان في كل مرة يهمُ بشرب الماء، يرىٰ صورته في الماء فيتوهم أن فيه كلباً آخر، فيتراجع، إلىٰ أن اضطره اشتداد عطشه إلىٰ إلقاء نفسه في الماء لكي لا يرىٰ ذلك الكلب الموهوم. وعندما أزاحه عن بصره زال الحجاب أيضاً[١]؛ فخرج مهاجراً عن بيت النفس.

السفر من الحق إلىٰ الحق: وهو السيرُ بالله عن الله. السالك العاشق الصادق يقطع بقدم الصدق وبفرسٍ جموح صحراء بيته الوجودي، فيرتوي بشراب الفناء القوي، ثم وبعد البقاء بمقتضىٰ الحال يتحرك صوب الجمع والخلق منطلقاً من بساط قرب الحق تعالىٰ.

أنواع القلوب:

إن قلوب الناس تكون ـ قبل مقام التزكية والتجريد والإنقطاع عن كل ما سوىٰ الحق تعالىٰ ـ متوجهة إلىٰ الأغيار معرضة عن وجه الحق تعالىٰ، وذلك بسبب تأثيرات وساوس الشيطان وهواجس النفس عليها؛ فتكون في هذه الحالة متوجهة إلىٰ ما سوىٰ الله بظاهرها وباطنها، فأصحاب هذه القلوب يُولون وجوههم الظاهرية شطر القبلة الظاهرية أثناء الصلاة لكن وجوههم الباطنية ـ وهي وجه القلب ـ لا تكون متوجهة شطر القبلة الحقيقية[٢].

من هنا فإن للقلوب شؤون متنوعة وأنواعاً عدة: وهذا التقسيم

---

(١) نقلًا عن كتاب (مسافر سرگشته ـ المسافر الحائر) بالفارسية.

(٢) يعني أن لا تكون منقطعة إلىٰ الله عز وجل فلا يتحقق التوحيد الخالص دون ذلك، والمراد من التوجه للكعبة المعظمة بالبدن هو تنبيه القلب إلىٰ ضرورة التوجه إلىٰ صاحب الكعبة وربها وهو الله جل جلاله وتوحيده فيكون توجيه البدن لبيت الله مقدمة للإنقطاع إليه علىٰ ملة إبراهيم الحنيفية.

استخدمَهُ القرآن الكريم وأحاديث المعصومين عليهم السلام، يقول تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[1]، أجل فالقلب الشريف لخاتم المراتب الكمالية ـ صلوات الله عليه ـ هو مهبط الروح الأمين، وليس لدينا بضاعة نعرضها هنا بشأن عظمة وجلالة مقام هذه القبلة المقدسة التي هي «عرش الرحمان»، لأننا لا نفهم كيف كان حال قلبه صلى الله عليه وآله، ولا يمكننا أن نفهم[2].

ويقول تعالىٰ في موردٍ آخر: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾[3]، ففي هذه الآية المباركة يصف تبارك وتعالىٰ بعض القلوب بأنها مريضة وملوثة بالرجس، ويصف بعضها في آية أخرىٰ بأنها غرقت في الرجس والخبائث، إلىٰ درجة لا يمكن اعتبارها من القلوب أصلًا، وذلك حيث يقول تعالىٰ: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها﴾[4]. بل ويصف بعض القلوب بأنها تصير أشد قساوة من الحجارة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[5]، ويعتبر بعضها عمياء لا فائدة منها: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[6].

ويقول تعالىٰ في موارد أخرىٰ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ

---

(١) الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث النبوي المصرح بأنه لم يعرفه صلى الله عليه وآله إلا الله وعليّ عليه السلام مثلما لم يعرف الله سواهما عليهما السلام ولم يعرف علياً إلا الله جل جلاله وخاتم رسله صلى الله عليه وآله، والمقصود هو حق المعرفة بالطبع.

(٣) التوبة: ١٢٥.

(٤) الأعراف: ١٧٩.

(٥) البقرة: ٧٤.

(٦) الحج: ٤٦.

سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1]، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾[2]، ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[3]؛ فيما يقول تعالىٰ عن القلوب المحمية من هواجس النفس ووساوس الشيطان التي يرسخ فيها الإيمان ببركة ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[4]، وهو ـ تعالىٰ ـ يُبينُ أن رسوخ هذا الإيمان شرطُ هداية القلب: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[5]، ويصرح بأن ذكر الله سبب طمأنينة القلوب: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[6]، كما يصف إبراهيم الخليل بأنه صاحب القلب السليم:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[7]. والقلب السليم المطهر عما سوىٰ الله موجودٌ لدىٰ آخرين: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[8]، والقلبُ السليم هو الحافظ علىٰ صورته الأصلية[9]، وكل قلب يحفظ صورته الحقيقية يكونُ مهبطاً لتجليات الحق تبارك وتعالىٰ.

كما وردت إشارات إلىٰ أنواعِ القلوب في الأحاديث الشريفة، فقد

---

(١) التوبة: ٦٤.
(٢) الأعراف: ١٧٩.
(٣) التوبة: ٨٧.
(٤) المجادلة: ٢٢.
(٥) التغابن: ١١.
(٦) الرعد: ٢٨.
(٧) الصافات: ٨٣ ـ ٨٤.
(٨) الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩.
(٩) أي صورته الأولىٰ علىٰ الفطرة السليمة وقبل أن تلوثه أرجاس الوساوس الشيطانية والأهواء القلبية وتوقعه في أشكال الشرك الجلي الواضح أو الخفي وجميعها تعبر عن التعلق بالأسباب والغفلة عن رب الأسباب ومسببها، عن الإمام الصادق عليه السلام: «القلب السليم الذي يلقىٰ الله وليس فيه أحد سواه». البحار ٧٠: ٥٤.

قسمها رسول الله ﷺ إلىٰ أربعة: قلب أجرد مطهر فيه سراج يزهر هو قلب المؤمن، وقلب أسود منكوص هو قلب الكافر، وقلبٌ معلق بين الكفر والإيمان هو قلب المنافق، وقلبٌ مصفحٌ ذو وجهين، أحدهما محل الإيمان والآخر محل النفاق[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**إن القلوب ثلاثة: قلبٌ منكوسٌ لا يعي شيئاً من الخير وهو قلب الكافر، وقلبٌ فيه نكتةٌ سوداء والخير والشر فيه يعتلجان، فأيهما كانت منه غلب عليه، وقلبٌ مفتوحٌ فيه مصابيح [مصباح] يزهرُ لا يطفىء نوره إلىٰ يوم القيامة وهو قلب المؤمن**»[2]. وفي حديث آخر عنه عليه السلام قال: «**إن القلوب أربعة، قلبٌ فيه نفاق وإيمان، وقلبٌ منكوس وقلبٌ مطبوع وقلب أزهر أجرد. . . فأما المطبوع فقلبُ المنافق، وأما الأزهر فقلب المؤمن، إنْ أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر، وأما المنكوس فقلب المشرك. . . فأما القلب الذي فيه إيمان ونفاق، فهم قومٌ كانوا بالطائف، فإن أدرك أحدهم أجله علىٰ نفاق هلك، وإن أدركه علىٰ إيمانه نجا**»[3].

المستفاد من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة هو أن ما فيها من إشارات وحكايات ومن لطائف ودقائق تُستنبطُ منها، تفصح عن أن الحقائق التي تشتمل عليها القلوب هي التي تقسمها إلىٰ أنواعٍ مختلفة، وهذه النصوص تبين لنا هذه الأنواع وتجعلنا ندرك أنّ القلبَ يسقط عن مكانته في إحدى المراتب ويفقد وصف القلب، كما أنه يبلغ ـ في إحدىٰ مراتبه ـ منزلةً ومكانةً كريمة لا تستطيع الكلمات

---

(١) مصباح الهداية ومفتاح الكفاية (بالفارسية): ٩٩.
(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب ظلمة قلب المنافق، ح ٣.
(٣) المصدر السابق، ح ٢.

تبيان عظمتها وجلالتها، وهذا هو القلب الذي يصير محلًا لتجليات أسماء الحق تعالىٰ وصفاته ومعدناً لأسرار الوجود[1].

مدخرات القلب:

القلب هو محل نظر الحق تعالىٰ ومركز تجليات الأنوار الربوبية، فهو يتمتع بمكانة خاصة لا تحظىٰ بشيءٍ منها سائر أعضاء البدن وجوارحه، بل هي خاضعة لحكمه، بل هي رعيته كما هو المستفاد من قولهم: «**القلبُ أمير البدن**»، فهو مستودع كل المطالب والأماني والأعمال والفضائل والسيئات والمحاسن والقبائح وغيرها، وهي في الواقع مدخراتها التي تظهر آثارها بلا شك في حالات خاصة إلىٰ الخارج فتبين للفرد والمجتمع فيما إذا كان صاحب هذا القلب من السعداء أو من الأشقياء.

من هنا يعتقد أهل السلوك بوجوب أن تبدأ عملية التهذيب والتزكية من القلب، فتطهره أولًا، ولذلك تضمن الخطاب الإلهي لإبراهيم الخليل وهو يأخذ ولده إسماعيل إلىٰ المذبح، التنبيه إلىٰ أن ما يريده منه ليس ذبح الولد بل قطع قلب الوالد عن التعلق بالولد[2]! وفي ذلك إشارةٌ إلىٰ أن أي محبة وعاطفة حتىٰ محبة القلب للولد لا ينبغي أن تحجبه عن التجليات الإلهية فالقلب هو بيت الله ولا ينبغي أن يكون محلًا للأهواء، فإذا ظهرت فيه ظلمات الأهواء أسقطته وصارت حياتُهُ جسمانية ظلمانية، أما إذا دخله نورٌ من الأنوار الإلهية أنقذ صاحبه من الظلمات والرجس وجعله إنساناً ملائكياً.

يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**ما من عبدٍ إلا وفي قلبه نكتةٌ بيضاء، فإن أذنب ذنباً خرج في النكتةِ نكتةٌ سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد،**

---

(١) تفسير سورة يوسف (بالفارسية): ٢٦٠.

(٢) كتاب (شرح تعرف) بالفارسية ١: ١٨٩.

وإن تمادىٰ في الذنوب زاد ذلك السواد حتىٰ يغطي البياض، فإذا غطىٰ البياض لم يرجع صاحبه إلىٰ خير أبداً، وهو قول الله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]»[2].

إذن فالإنسان مسؤولٌ عمّا يأنس به قلبه وعمّا يكسبُهُ قلبه: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[3]، ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾[4]، لذا، فعلىٰ الذي يدعو الله والذي أصبح طالباً له تعالىٰ ويسعىٰ إلىٰ لقائِهِ عز وجل، أن يحاسب نفسه علىٰ ما يدخره قلبه قبل أن يُحاسبه الله عليه كما يصرح بذلك القرآن الكريم، ثم يطهر قلبه من كل ما سوىٰ الحق سبحانه وتعالىٰ ويودعه بيد صاحبه الحقيقي عز وجل لكي يفوزَ بألطاف الله عز وجل ورحماته الخاصة.

إن مالك القلب هو مَن يحلُ فيه، فإذا كان الذي يحل فيه هو الله تعالىٰ، صار محلًا لنظر الرب تعالىٰ ومركز التجليات الرحمانية، وإذا حلَّ فيه غيره ـ جل وعلا ـ صار هذا الغير سلطاناً حاكماً فيه ينفذ حبه إلىٰ جميع أجزاء كيان صاحب القلب، يُنقل أن السلطان محمود سأل «أيازاً» يوماً: هل تعرف سلطاناً في هذه الدنيا يتمتعُ بلسطنةٍ أعظم من سلطنتي؟ أجاب أياز: نعم يا مليكي، إن ملكي ومملكتي أعظم وأوسع! قال السلطان: وما هو دليلك علىٰ هذا الإدعاء؟ أجاب: إنك تعلم أن السلطان الحقيقي لهذه المملكة الواسعة هو قلبك، وقلبك بيدي أنا غلامك، أليس سلطاني علىٰ قلبك أعظم من هذا التاج المرصع بالجواهر الذي تضعه علىٰ رأسك[5]؟!

---

(١) المطففين: ١٤.

(٢) المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء ٥: ٢٢ نقلًا عن أصول الكافي.

(٣) البقرة: ٢٢٥.

(٤) البقرة: ٢٨٤.

(٥) كتاب (إلهي نامه) للشيخ فريد الدين العطار، بالفارسية: ١٨٤.

من هنا فقد شددوا الوصية على السالك بأن يجتهد في مراقبة قلبه وحراسته لكي لا يدخله أحدٌ من الأغيار، ويقطنه ويملكه بإثارة الفتن وبالخدع، فيسقطه عن مكانته الحقيقية فلا يبقى لصاحبه منه سوى اسم دون مسمىً.

على السالك أن يجتهد في حفظ قلبه من الهواجس النفسانية والوساوس الشيطانية، وعليه أن يعلم أن كل ما سوى حب الله وحب قدسيّ عالم القدس الذين يطوفون حول العرش، يلوث القلب، فيجب أن يجعله مختوماً بختم محبة الحق تبارك وتعالى لكي لا يدخله حب غيره ـ جل وعلا ـ.

يتحدث عارف زاهد بإشارات عرفانية عن «ختم النبوة» فيقول: «سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! ما أول ما رأيتَ من أمر النبوة؟ فقال: بينا أنا ذات يومٍ ألعب مع أتراب لي من الصبيان إذا أتانا رهطٌ ثلاثة معهم طستٌ من ذهب مليء ثلجاً، فأخذوني من بين أصحابي... فعمد أحدهم فأضجعني على الأرض... ثم شق صدري... فأخرج قلبي فصدعه ثم غسله بذلك الثلج... فإذا أنا بخاتم في يده، فختم به قلبي وقال: لا تخف يا سيدي... وذلك نور النبوة والحكمة، ثم أعاده مكانه، فأمرّ يده فالتأم ذلك الشق...

يقول أهل المعرفة: إن الله كان قادراً على محو آثار عملية الشق فمحاها لكنه لم يرفع نور المحبة عن عنق النبي»[1].

(١) كتاب (شرح تعرف) ٢: ٥٢٦، وراجع تاريخ الطبري ٢: ١٥٨ ـ ١٦٢، ويظهر من تحقيقات مؤرخي الإمامية أن هذه القصة مختلفة، لاحظ موسوعة التاريخ الإسلامي للشيخ محمد هادي الغروي ١: ٢٦٥ ـ ٢٧٥، وقد نقلها العلامة الطباطبائي في الميزان (٢٠: ٣١٧) عن تفسيري الدر المنثور وروح المعاني وعلق عليها بالقول: «والقصة على أي حال من قبيل التمثيل بلا إشكال وقد أطالوا البحث في توجيه ما تتضمنه على أنها واقعة مادية فتمحلوا بوجوه لا جدوى في التعرض لها بعد فساد أصلها».

وعلىٰ أي حال، لا ينبغي أن يكون في القلب محلٌ لغير الله تعالىٰ، وإذا أحب غيره فليكن حبه حباً لله[1]، وهذا يعني الإنقطاع عن الجميع وعن كل شيءٍ والتعلق بالرب جل وعلا وحده، وهذا ما يدعو إليه القرآن في آيات عدة مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[2]، يقول مؤلف تفسير «منهج الصادقين» في تفسير هذه الآية: «يعني: انقطع عن جميع الخلائق وتوجه إلىٰ الله بالطاعة والعبادة، والإنقطاع الكامل يعني تجريد النفس عن التفكير بكل ما سوىٰ الله تعالىٰ والتوجه القلبي إليه تعالىٰ بالكامل، ولذلك سميت السيدة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ «البتول»، لأنها كانت منقطعة بالكامل عما سوىٰ الله قائمة بواجب الطاعة والعبادات في الليل والنهار.

وقالوا: إن المراد من «التبتل» وهو الإنقطاع بالكامل لله تعالىٰ يعني أن يقطع الإنسان توجه القلب عن نفسه وعن كل شخصٍ وكل شيءٍ ويوجهه شطر رب العالمين، أي أن يترك أهواء نفسه وطلباتها وشهواتها وآمالها، ويكون فرحه بما أعطاه ويعطيه ربّه سبحانه وتعالىٰ، هذا أولًا، وثانياً إذا كان لا زال أسير النفس ولم يستطع التحرر من آمالها، فعليه أن لا يرجو للوصول إلىٰ تلك الآمال ـ أي مخلوق، ويتذكر دائماً أن عاقبة كل مخلوق هو حفنة تراب مثلما أنه مخلوق بدءً من حفنةِ تراب.

ثم عليه أن لا يعتبر ما يراه في الأشياء من قوىٰ وطاقات بسيطة زائلة صادرة منها بذاتها، بل يرىٰ أن كل حولٍ وقوةٍ فيما هو من خالقها

(١) الحب في الله والبغض في الله من الأبواب العظيمة للتقرب من الله عز وجل، راجع الباب (١٥) من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من كتاب جهاد النفس وما يناسبه من وسائل الشيعة (١٦: ١٦٥ وما بعدها).

(٢) المزمل: ٨.

وهو مبدأ وجودها فهي فوة ظليه بالتبعية لا بالاستقلال، أي أن لا يرىٰ لشيءٍ استقلالًا في أي شأنٍ من شؤونه بالأصالة، وعندها يتيقن من أن تحقيق أي أملٍ رهينٌ بأن يكون نظره متوجهاً إلىٰ الخالق جل وعلا، فإذا طلب ما يريد منه حصل عليه بالأسباب العادية أو بغيرها، وإلا لم يحصل علىٰ ما يريد مهما خضع للسبب الذي يراه مؤثراً في تحقيق ما يريدُ، ولذلك يجب الإنقطاع القلبي عن كل الأسباب والتوجه بالرجاء لمسببها تبارك وتعالىٰ والطلب منه للحصول علىٰ أي نفع، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«اجعلوا كل رجائكم لله سبحانه ولا ترجوا أحداً سواه»**[1]، **«العبادة الخالصة أن لا يرجو الرجل إلّا ربه ولا يخاف إلّا ذلك. . .»**[2].

القلب المريض:

القلب هو هذا العضو الحساس الذي نرىٰ عظمتَهُ بمستوىٰ عظمة الكائنات ولا ترىٰ له مثيلًا في العالمين في سعة وعائِهِ، هذا العضو لم يزينوه - يوم اتقنوا خلقه - بغير الحق والمودة والرأفة والعاطفة والرقة، والإيمان والإيقان، والوفاء والصفاء، والطهارة والإنجذاب إلىٰ الله تعالىٰ، وعندما وضعوه في وجود الإنسان جعلوه مقراً لحضور الله ومحلًا لنظر الرحمان، فصار بهذه الفضيلة معدناً للأسرار ومحلًا لتجلي الأنوار، فسكنتُهُ هم صفات الله وأسماء الله، فهو «طور سينا» في وجود الإنسان، منه يصدر - لا من غيره من أعضاء البدن - ما يأتي من كرامات الحق تعالىٰ، وما يتجلىٰ منه عز وجل هو نصيب الإنسان من هذه الكرامات.

---

(١) معجم ألفاظ غرر الحكم ودرر الكلم: ١٢٧٠، ح ١١١، والمعجم من إعداد مصطفىٰ درايتي وهو منشورات مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي في قم.
(٢) المصدر السابق: ١٢٨٠، ح ٢٦٢.

ولذلك تجب حراسته بكل يقظة وقوة لكي لا تغزوه جنود الأرجاس، ولا يكون هذا القلب عزيزاً علىٰ السالك إلا عندما يكون مجتهداً في حفظ سلامته، ساعياً في حمايته من دخول الخبائث والذنوب والقبائح فهي تجلب معها أمراضها المتنوعة، وهذه الأمراض الخطيرة ـ ولكي تبقىٰ في القلب إلىٰ الأبد ـ تجلب معها شباك الغفلة فتستغفل بها صاحبه وتحجبه عن السعي للشفاء والتطهر منها، فإذا دخلته أخذت ترسخ جذورها فيه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[1].

أجل، فالقلب مثل البدن يُصاب بالأمراض ويصرحُ عليٌ أمير المؤمنين عليه السلام، بأن للقلب ست حالات مثلما أن للبدن ست حالات هي السلامة والمرض والموت والحياة والنوم واليقظة، فحياةُ القلب بالعلم وموته بالجهل، ومرضه الشك والترديد وسلامته وصحته اليقين، ونومه الغفلة ويقظته المراقبة[2].

ومثلما أن مرض أي عضوٍ من أعضاء البدن يؤذي الإنسان ويجعل عيشه صعباً، كذلك حال مرض القلب، فهو يجلب علىٰ صاحبه صعوبة العيش والمشاكل في الحياة الدنيا وأشكال العذاب في الآخرة، والقلبُ المريض يترك آثاره السلبية علىٰ العقل والنفس والروح، إن مرضه ينفذ إلىٰ أعماق الروح فيحرقها، لأن خطره أشد ـ بأضعافٍ ـ من خطر الأمراض البدنية وأصعب علاجاً، يقولُ عليٌ أمير المؤمنين عليه السلام: **«ألا وإنّ من البلاء الفاقة، وأشدُ من الفاقة مرضُ البدن، وأشدُ من مرض البدن مرض القلب، ألا وإن من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحةُ البدن، وأفضل من صحة البدن تقوىٰ القلب»**[3].

---

(١) البقرة: ١٠.

(٢) بحار الأنوار ١٤: ٣٩٨ من الطبعة الحجرية القديمة.

(٣) تصنيف نهج البلاغة، إعداد لبيب بيضون: ٦٩٥، الحكمة: ٣٨٨ من باب الحكم في نهج البلاغة.

من هنا يجب الاهتمام بصحة القلب بصورةٍ أشد، **فإن** كل مرض من أمراضه يوفر الأرضية المناسبة للمعاصي، والقلب المريض هو الذي يوقع الأعضاءَ والجوارح في المعاصي، فتكون أقوال صاحبه وفعاله منصبة بالاتجاه الذي يريد القلب المريض، مخالفة لما تطلبه الفطرة الإنسانية السليمة، أي تسهر بالاتجاه المعاكس للصراط المستقيم.

ولا شك أن كل ذنب يصدر عن الإنسان هو نتيجةٌ لمرضٍ في قلبه، وهو يعني في الواقع فقدان صاحبه لفطرته الإلهية السليمة، فهو حيٌ في الظاهر يعيش كالأحياء ولكنه ميتٌ في الحقيقة، وهذا الموت هو ما يحذر منه أئمة أهل السلوك، والمتصدرون لمراتب محفل المعرفة، وينبهون السالكين إلىٰ الله علىٰ خطره، يقول عليٌ أمير المؤمنين عليه السلام في صفة الزهاد: **«ويرون أهل الدنيا يعظمون موت أجسادهم، وهم أشد إعظاماً لموت قلوبهم أحيائهم»**[1].

إن المرتدين بكأس المعرفة قد تيقنوا ـ بأرواحهم ـ من أن موت بدن الإنسان يعني الحرمان من اللذات الدنيوية التي لا تدوم إلا لأيام معدودات والتي تقترنُ بآلافٍ من أشكال الأذىٰ، أما موت القلب فهو يعني الحرمان من السعادات السرمدية واللذات الخالصة من كل أذىً ونصب.

طرق تسلل الشيطان إلى القلب:

لا يمكن للمستيقظ بنفسه التائب، أو المتنور بنور اليقظة أو السالك المشتاق الوصول إلىٰ مقصده والفوز بالسعادة الخالدة، ما لم يتعرف علىٰ طرق تسلل الشيطان إلىٰ القلب، فإن اليقظين الذين وصلوا

(١) المصدر السابق: ٦٩٤، عن الخطبة رقم ٢٢٨ من نهج البلاغة.

إلىٰ المقصد واحتضنوا عروس آمالهم في مقر الوصال، قد نبهوا السالك إلىٰ وجوب الاهتمام بالقلب وحراسته، لأن الشيطان الرجيم يسخر كل جهوده من أجل التسلل إلىٰ القلب ثم الاستقرار فيه، ثم تدميره فيسقط السالك من ذرىٰ المقامات المعنوية إلىٰ أسفل سافلين[1]؛ والشخص الوحيد القادر علىٰ إحباط هذه المساعي الشيطانية، هو الذي يغلق ـ مستعيناً بنور المعرفة وقوة الهمة العالية والغيرة الإيمانية ـ بوجه الشيطان الأبواب الخفية الدقيقة التي يحتمل تسلله منها لتحقيق أهدافه الخبيثة.

والإنسان معرضٌ باستمرار لأخطار الهواجس النفسانية والوساوس الشيطانية، لذلك يجب أن يتحلىٰ باليقظة الكاملة في حراسة تلك الأبواب بعد إغلاقها، فقد قالوا: «أصبحتَ حارساً لحرم القلب، فكانت حراستي مستمرة كل ليلة»، أما إذا خدعه الشيطان في ليلةِ غفلة وأسقطه في شباك الاستجابة للشهوات النفسانية، فعليه أن لا يكف عن واجب الحراسة حتىٰ في هذه الحالة[2]، عليه أن يجتهد في السعي لحفظ تلك الأبواب وطرق وثغرات التسلل مغلقةً بوجه الشيطان الخبيث الذي يكمن للإنسان في كل حين، لكي يتمكن من جبران آثار انخداعه به وينقذ روحَ الإيمان من مهالكه ووساوسه، ولكي يصل إلىٰ «منى» العشق ويقدم وجوده قرباناً في مذبحه، ويذبح بسيف «لا إله» رغبات النفس والشيطان، ويتوجه إلىٰ قبلة الوصال ـ وهي كعبة المراد ـ بنداء

---

(١) ينبه النبي الأكرم ﷺ علىٰ هذه الحقيقة التربوية والسلوكية بقوله: **«لولا أن الشياطين يحومون علىٰ قلوب بني آدم لنظروا إلىٰ ملكوت السماوات»** (المحجة البيضاء ٥: ١٦)، وقوله ﷺ: **«إن الشيطان واضع خطمه علىٰ قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإن نسي الله التقم قلبه»** (المحجة البيضاء ٥: ٥١).

(٢) وأقوىٰ الوسائل للقيام بذلك هو التوبة وذكر الله عز وجل فهذه هي وسيلة دحر الشيطان وأبعاده، وقد وردت في القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت عليهم السلام تأكيدات مشددة علىٰ الاستعاذة بالله عز وجل في الصباح والمساء وفي بداية القيام بالأعمال العبادية مثل تلاوة القرآن والصلاة، أو حتىٰ الأعمال الأخرىٰ مثل الذهاب لقضاء الحاجة أو عند إتيان الزوجة وغير ذلك.

«إلا الله»، فيعرض عن كل ما سوىٰ الحبيب جل وعلا، ويقتحم عقبة «إثنينية» التوحيد، ويشرب في خيمة العبودية وبكأس ساقي محفل التوحيد شراب الفناء والبقاء الطهور.

طارقا القلب:

يرد علىٰ القلب ـ وهو محل تجلي الأنوار ومهبط الفيوضات والبركات الإلهية ـ طارقان باستمرار، الأول من المَلَك ويعد بالخير وتصديق الحق تعالىٰ، وطارق من الشيطان يدعوه لشر وتكذيب الحق. عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**لُمتّان: لُمَّةٌ من الشيطان ولمة من الملك، فلمّةُ الملك الرقة والفهم، ولمةُ الشيطان السهو والقسوة**»(١).

من هنا تجب ـ في المقابل ـ المواظبة علىٰ حراسته باستمرار لكي لا تفتح أبواب نفوذ الشيطان إليه تحت ضغط الهجمات الشيطانية فتدخل رذائلها إلىٰ باطن الإنسان، وتغطي وجوده بوساوسها فتصد السالك عن العروج إلىٰ ذرىٰ الحقائق، فإبليس قد قال بنفسه في كلامه مع الحق تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾(٢).

الشيطان يتحدث عن طرق تسلله

نقلت بعض الأخبار والروايات ما كشفه الشيطان من طرق تسلله إلىٰ القلب: فقد روي: «أن إبليس لقي موسىٰ عليه السلام فقال: يا موسىٰ أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليماً، وأنا من خلق الله أذنبتُ

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٤٤ (من الطبعة ذات الثلاثين جزءً)، باب تحريم قسوة القلب من أبواب جهاد النفس وما يناسبه.
(٢) الأعراف: ١٦ ـ ١٧.

ذنباً وأريدُ التوب، فأشفع لي إلىٰ ربي أن يتوبَ عليَّ، قال موسىٰ: نعم، فدعا موسىٰ ربَّهُ عز وجل، فقال: يا موسىٰ قد قضيت حاجتك، فَمُرّهُ أن يسجدَ لقبر آدم، فلقي موسىٰ إبليس، فقال له: أمرت أن تسجد لقبر آدم ليُتاب عليك، فاستكبر وغضب، وقال: لم أسجد له حيّاً فكيف أسجد له ميتاً[1]؟! ثم قال إبليس: يا موسىٰ إن لك عليَّ حقاً بما شفعتَ لي إلىٰ ربك، فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهن:

إذكرني حين تغضب، فإنّ روحي في قلبك وعيني في عينك وأجري منك مجرىٰ الدم.

واذكرني حين تلقي الزحف، فإني آتي ولد آدم حين يلقىٰ الزحف فاذكره ولده وزوجته وأهله حتىٰ يولّي.

وإياك أن تجالس امرأةً ليست لك بذات محرم فإني رسولها إليك ورسولك إليها»[2].

كما روي: «أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة وقال: يابن حنظلة احفظ عني شيئا أُعلمكه، قال: لا حاجة لي به، قال: انظر فإن كان خيراً قبلته، وإن كان شراً رددت، يابن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله شيئاً سؤال رغبة، وانظر كيف تكون إذا غضبت»[3].

كما روي في بعض التفاسير: «أن نوحاً عليه السلام لما ركب البحر وحمل في السفينة من كل زوجين اثنين كما أُمر، فرأىٰ في السفينة شيخاً لم يعرفه، فقال له نوحٌ عليه السلام: ما أدخلك؟ قال: دخلتُ لأصيبَ

---

(١) ثمة عظة تربوية مهمة في موقف إبليس هذا وحرمانه من التوبة، وهي أن التوبة إلىٰ الله لا تتم إلا بأن يزيل التائب عن قلبه المرض الذي أوقعه في الذنب الذي تاب منه، فإبليس وإن رغب في التوبة لكنه لم يطهر قلبه من الكبر والحسد وهما سبب وقوعه في تلك المعصية.

(٢) المحجة البيضاء ٥: ٥٩، وفي هامشه أن الرواية منقولة في الدر المنثور ١: ٥١.

(٣) المحجة البيضاء ٥: ٦٠.

قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك. قال نوح عليه السلام: أُخرج منها يا عدوّ الله فإنك رجيم، قال له إبليس: خمسٌ أُهلكُ بهنَّ الناس، وسأحدثك منهنّ بثلاث ولا أحدثك بالثنتين، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نوح عليه السلام أنه: لا حاجة بك إلىٰ الثلاث، مُرْهُ فليحدثكَ بالثنتين، فقال: وما الثنتان؟ فقال: هما اللتان لا تكذباني، هما اللتان لا تخلفانني، بهما أهلك الناس: الحرص والحسد، بالحسد لُعنتُ وجُعلتُ شيطاناً رجيماً، وأما الحرص فإنه أُبيح لآدم الجنة كلها، فأصبتُ حاجتي منه بالحرص»[1].

هذه نماذج لطرق تسلّل الشيطان أفصح عنها بنفسه وسنتطرق إليها باختصار ضمن الحديث عن أمراض القلب.

جنود الشيطان:

ينبغي الالتفات إلىٰ أن الشيطان يبعث لكل شخص الجنود التي تناسبه، ويقيد كل شخصٍ بالأغلال المناسبة له، روي: «أن إبليس ظهر ليحيىٰ عليه السلام فرأىٰ عليه مغاليق من كل شيءٍ، فقال له يحيىٰ عليه السلام: «يا إبليس ما هذه المغاليق؟ قال: هذه الشهوات التي أُصبت بها بني آدم، قال: فهل لي فيها شيءٍ؟ قال: ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر. قال: هل غير ذلك؟ قال: لا، قال يحيىٰ: لله عليّ أن لا أملأ بطني من طعام أبداً. فقال إبليس: ولله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبداً»[2].

ويروي أحد تلامذةُ آية الله العظمىٰ الشيخ مرتضىٰ الأنصاري ـ قدس الله روحه العزيزة ـ وكان يحضر أيام دراسته في النجف الأشرف

---

(١) المحجة البيضاء ٥: ٥٨، الدر المنثور ٣: ٣٢٣.

(٢) المحجة البيضاء ٥: ٦٠ وهو مروي في البحار عن مجالس الشيخ الطوسي.

مجلس تدريس هذا الفقيه الجليل والعارف المبجل، وهو مجلس تشهده الملائكة، يروي الحادثة التالية:

«رأيت مرةً الشيطان في عالم الرؤيا وهو يحمل بيده عدداً من الأزمة، فسألته عنها، فقال: إنني ألجم بها الناس وأجرهم نحوي، وقد ألقيت أحدها بالأمس علىٰ رأس الشيخ مرتضىٰ الأنصاري، وسحبته به من غرفته إلىٰ الزقاق، لكنه تحرر من لجامه في وسط الزقاق وعاد».

ويتابع هذا التلميذ حديثه بالقول: «بعد أن استيقظتُ ذهبتُ إلىٰ الشيخ وحدثته برؤياي، فقال ـ رحمه الله ـ: لقد صدق الشيطان، لقد سعىٰ الملعون بالأمس إلىٰ خداعي بلطائف الحيل، احتجنا إلىٰ شيء للعائلة ولم يكن لديّ ما أشتريه لهم به، فقلتُ في نفسي: لاقترض هذا القران [عملة صغيرة كانت متداولة يومذاك] المتبقي عندي من سهم الإمام عليه السلام واشتري به ما تحتاجه العائلة، فلم يحن وقت صرفه في مورده المعين، ثم أسدده كقرضٍ فيما بعد.

أخذت هذا القرآن وخرجت من المنزل ووصلت إلىٰ وسط الزقاق وعندما هممتُ بشراء الحاجة عاتبتُ نفسي علىٰ هذا الفعل ثم ندمتُ ورجعت إلىٰ البيت وأعدتُ القرآن إلىٰ محله»(١).

إذن ينبغي للتائب صاحب اليقظة الذاتية أو المتنور بنور اليقظة أو السالك، أن يتعرض ـ بمعونة الموازين الإلهية ـ علىٰ جنود الشيطان ويعد نفسه لمجاهدتهم. وما يمكن قوله هنا ـ بنحو القاعدة العامة ـ هو: أن كل فكرة أو خاطر لا يكون إلهياً فهو من جنود الشيطان، لذا يجب علىٰ السالك اليقظ المجاهد أن يبادر ـ بكل حزم وقوة ـ إلىٰ قتل أي من الجنود الشيطانية هذه بمجرّد خروجه من مكمنه واستعداده

---

(١) كتاب (زندگاني وشخصيت الشيخ الأنصاري = سيرة وشخصية الشيخ الأنصاري: ٨٨.

للهجوم عليه، لكي يحفظ بهذا الحزم الجهادي جوهرة إيمانه ويوصلها إلىٰ منزل الوصال. وما أجمل ما قاله بهاء الدين محمد بن جلال الدين محمد الخراساني بهذا الشأن، حيث قال: «لا يوجد بين الحيوانات ـ مثل الحصان أو البعير أو الخروف ـ حيوانٌ يمكن أن يوصف بأنه شيطاني، لأنها فاقدة للجوهر المعنوي ولذلك لا يتعرض لها الشيطان ولا يقطع طريقها فلا توجد لديها بضاعة يطمع بسلبها منها، لكنه يقطع الطريق علىٰ بني آدم لكي يُنزلهم من المرتبة الإنسانية إلىٰ المرتبة الحيوانية»[1] إنه يهاجم الذين سلكوا طريق منازل العروج[2]، ويسعىٰ بمكائده وأحابيله إلىٰ إزالة ما يبعدهم عنه ويقربهم إلىٰ الحق تبارك وتعالىٰ، فيُسقط المقربين من مقامات القرب الإلهي، وقد علمنا بما فعله مع أبينا آدم عليه السلام . . عند وُضع تاج الكرامة علىٰ رأسه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[3]، ووصل إلىٰ مرتبة: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[4]، ظهر عدوه الحسود إبليس فوراً وأنزله بالمكر والخداع من أعلىٰ عليين إلىٰ بساط الأرض.

علىٰ السالك الطالب للقاء الله جل جلاله، أن يعلم علماً يقينيا أن حسد إبليس اللعين، له يشتد كلما اقترب أكثر من حرم القرب الإلهي، ويضاعف حينئذٍ من مساعيه للتسلل إلىٰ قلبه والنفوذ إلىٰ مجاري دمه، يقول سيد الكائنات محمد المصطفىٰ ـ صلوات الله عليه ـ: «**الشيطان**

---

(١) كتاب (معارف سلطان ولد) بالفارسية: ١٠٦.

(٢) يتعرض الشيطان وجنوده لجميع بني آدم لغوايتهم وحرفهم عن الصراط المستقيم، لكن هجماته تشتد ومكائده تكون أعقد في تعامله مع عموم المؤمنين وبالخصوص مع السالكين وتشتد هذه الهجمات وتتعقد أساليبه في الغواية كلما اقترب السالك أكثر من مقصوده وهو في طريق السير والسلوك، لذلك يلزم السالك أن يشدد من اهتمامه بالاستعاذة بالله منه ومراقبة أحابيله كلما تقدم أكثر في طريقه السلوكي.

(٣) الإسراء: ٧٠.

(٤) البقرة: ٣١.

يجري في العروق كمجرى الدم»[1]. فالشيطان يظل يواصل جهوده الدؤوبة هذه لتحقيق هدفه المشؤوم لكي يدخل قلب السالك الذي يوشك أن يتنور بنور الإيمان ويتطهر من الشيطان وجنوده، إنه يظل يسعىٰ ـ بمكائده الخبيثة الكثيرة ـ إلىٰ صد السالك عن الرقي المعنوي، ولكن وكما قالوا: «لا شأن للشيطان بالإنسان ما لم يكن أحد عروقه شيطانياً»[2].

وهذا واضحٌ، لأن اللص يستطيع بسهولة الدخول إلىٰ البيت الذي يكون له فيه حليفٌ متواطىء معه، ولذلك فإن الخطر يظلُ محدقا بالسالك ما دام نورُ الإيمان لم يتجلَّ بالكامل في وجوده، ولذلك قال سيد الكائنات محمد المصطفىٰ ـ صلوات الله عليه ـ: **«المخلصون علىٰ خطر عظيم»**[3]. أي أن أخطار المكائد والتضليلات الإبليسية تظل تهدد السالك إلىٰ حين فنائِهِ عن وجوده الوهمي، فإذا ارتوىٰ من شراب الإيمان القوي، فإن الشيطان ـ عدوُهُ اللدود يهرب حينئذٍ من ظله، يقول سيد الكائنات محمد المصطفىٰ ـ صلوات الله عليه ـ: **«إن الشيطان ليفرَّ من ظل المؤمن»**[4].

أمراض القلب:

يُصاب الإنسان بنوعين من الأمراض: بدنية وقلبية، ومن عوارض

(١) كتاب (سلطان ولد): ١٠٧، وراجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٣: ١١٩، وفي بحار الأنوار (٧٠: ٤٢): «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرىٰ الدم فضيقوا مجاريه بالجوع»، فمحاربة الشهوات، والسيطرة علىٰ الشهوات سيطرة عليه وهذا المنهج العام لقمعه، ودفع أخطاره.

(٢) كتاب (معارف سلطان ولد) بالفارسية: ١٠٨.

(٣) مجموعة ورام: ٣٢٠، التمهيدات لعين القضاة الهمداني: ١٣٥، مرصاد العباد: ٩٦، التصفية في أحوال المتصوفة: ٦٥.

(٤) كتاب (معارف سلطان ولد): ١٠٨.

أمراض القلب: البخل، الحسد، الحرص، السمعة، العجب والأنانية، الإنكار، الشك، الحيرة، الحب والبغض بدوافع غير سليمة، الخوف والرجاء في غير مواردهما الصحيحة، الحقد، الكفر، النفاق، التكبر، الغضب، الوشاية، النميمة، الخيانة، البهتان، الغيبة، تتبع عثرات الآخرين، الرياء، الخداع، سوء الظن، القسوة، الغرور وأمثالها من الأمراض التي يبتلي بها معظم الناس ـ بدرجةٍ أو بأخرىٰ ـ باستثناء الذين ارتوا من شراب المعرفة والذين سلكوا وادي الحقيقة.

ولا يمكننا في هذه الرسالة المختصرة استيفاء البحث وبدقة في هذه الأمراض جميعاً، لذلك نكتفي بذكر أكثرها انتشاراً بين الناس:

النفاق:

وهو أعظم الذنوب القلبية وأسوأ الأمراض الروحية وأخطرها، والناس يتوسلون بالنفاق لتحقيق أهدافهم وهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1]، وهو مرضٌ خطرٌ جداً مدمرٌ ومستشر بين معظم الناس وله مراتب كثيرة ضعفاً وقوة، ويترك آثاراً سيئة للغاية، لذلك ينبغي للتائب صاحب اليقظة الذاتية الذي حظي بالألطاف الإلهية أن يهتم بمعالجة هذا المرض بهمة عشقية عالية لكي يتجلىٰ نور اليقظة لقلبه ويمهد بذلك لتجليات أنوار الحق تبارك وتعالىٰ.

وأسوأ أنواع النفاق هو ما تذكره الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[2]؛ وأكثر الناس مصابون ـ مع الأسف ـ به، باستثناء أهل السلوك وأولئك الذين ملكوا زمام نفوسهم، لأن الإيمان بالله واليوم الآخر إذا انعقد في القلب كان مصدر

---

(١) الفتح: ١٢.
(٢) البقرة: ٨.

أعمال صاحبه، فأعمال الإنسان تكشف عن طبيعة إيمانه، ونحن نرىٰ أكثر الناس يدَّعون الإيمان والخوف من يوم الجزاء والحساب في حين أن أعمالهم لا تصدق إدعاءهم وهذا يعني أنهم مبتلون بالنفاق، فالمؤمنون حقاً يرون الله حاضراً عندهم مراقباً لهم شاهداً عليهم فيخشونه حقاً وفي قلوبهم رهبة من العذاب المذكور كجزاءٍ للمعاصي، فإذا وقعوا في ذنب، فلا يكون عن استخفاف منهم بالمعصية بل بسبب غلبة النفس، يقولُ الإمام علي بن الحسين سيد الساجدين عليه السلام: **«إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد ولا بأمرك مستخف ولا لعقوبتك متعرض... ولكنْ خطيئة عرضت وسولت لي نفسي وغلبني هواي وأعانني عليها شقوتي»**[1].

ومن مصاديق النفاق، النفاق في التعامل مع الله في العبادات، بمعنىٰ أداء العبادات والواجبات والمستحبات البدنية والمالية بعنوان ظاهري هو أنها لله، في حين أن الهدف الحقيقي هو التظاهر بالتدين واكتساب السمعة والوجاهة بين الناس. أما فيما يرتبط بالنفاق في التعامل مع الناس، فمصداقه مثلًا أن يمدح الإنسان شخصاً ويعرب عن حبه له في حضوره، في حين يتعامل بعكس ذلك في غيابه، قال الإمام الباقر عليه السلام: **«لبئس العبدُ عبدٌ يكون ذا وجهين وذا لسانين، يُطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً»**[2]، بل ويعتبر الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام النفاق بحد الشرك[3]، ويمكنكم الرجوع في تفصيل ذلك إلىٰ شرح العلامة الخوئي رحمة الله عليه وشرح المولىٰ فتح الله. وعلىٰ أي حالٍ

---

(١) مقطع من دعائِهِ في أسحار شهر رمضان المعروف باسم راويه وهو أبو حمزة الثمالي، راجع مفاتيح الجنان المعرب: ١٩٢.

(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب ذي اللسانين، ح ٢.

(٣) راجع مثلًا الخطبتين ١٢٥، ١٨٥. والنفاق من ضعف النفس الذي يمنع المبتلىٰ به من التعبير صراحة عن نواياه، وهو أسير الغفلة عن حقيقة أن أضرار النفاق تعود عليه قبل غيره.

فمثل هؤلاء المنافقين، يخادعون الناس بمثل هذه الأساليب النفاقية ولكنهم سرعان ما يحيط بهم مكرهم ويفضحون: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(1).

الشك:

من علامات القلب السليم خلوه من الشك والحيرة(2)، فصاحبه ينظر بثقةٍ وإيقان إلىٰ الأمور، أما الذي يقع في أسر الشك فإنه سيقوده إلىٰ حياة الأنعام ويمكن أن يسوقه إلىٰ الكفر ولا يسمح له حتىٰ بالالتفات إلىٰ حاله والسعي لعلاج مرضه إلىٰ أن يرحل عن الدنيا وهو مصاب بهذا المرض، يقولُ الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا ترتابوا فتشكوا ولا تشكوا فتكفروا**»(3).

وعلىٰ السالك أو التائب ذي القلب اليقظ أن يعرف حقيقةَ أن لا ثمرة من أي عملٍ يقوم به ما دام واقعاً في أسر الشك والإنكار والحيرة، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**لا ينفعُ مع الشك والجحود عملٌ**»(4).

قسوة القلب:

وهي من أمراض القلب المانعة للإنسان عن الإقرار بالحقائق والخضوع لها، وهذا المرض يجرأُ الإنسان علىٰ ارتكاب الخطايا ولا

---

(1) البقرة: 9.

(2) كما يصرح بذلك الإمام الصادق عليه السلام في قوله: «القلب السليم الذي يلقىٰ ربّهُ وليس فيه أحد سواه.. وكل قلب فيه شك أو شرك فهو ساقط»، أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الإخلاص، ح 5.

(3) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الشك، ح 2.

(4) المصدر السابق، ح 7.

يجعله يشعر بالأذىٰ والندم لإرتكاب المعاصي، وهذه الحالة تظهر عندما ينغمس الإنسان في المعاصي واحدة تلو الأخرىٰ ويستشعر اللذة إلىٰ درجةٍ تحجبه من الشعور بالندم، بل وتجعله يأنس بالمعصية، ومثل هذا تصفه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بأنه مصاب بمرض قسوة القلب وأن الشيطان قد استحوذ علىٰ قلبه، يقول تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(١)].

وقد استعاذ المعصومون عليهم السلام في أدعيتهم بالله من قسوة القلب، نظير ما في دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**إلهي إليك أشكو قلباً قاسياً مع الوسواس متقلباً وبالدين والطبع متلبساً وعيناً عن البكاء من خوفك جامدة وإلىٰ ما يسرها طامحة**»[(٢)].

الرياء:

وهو من الأمراض الروحية والمعاصي القلبية، يبعدُ الإنسان عن نية التقرب إلىٰ الله تعالىٰ في العبادات البدنية والمالية، ويجعل قيامَهُ بها استجابةُ لهوىٰ النفس، فهو يطلب بها السمعة والوجاهة بين الناس لكي يصل عبر ذلك إلىٰ مطامعه المادية ومطامحه الشيطانية، وبظاهر بعيد عن الأساليب الشيطانية الظاهرة، فهو يتظاهر بأنه يطلب وجه الله لكي يغطي بذلك أهدافه الحقيقية ويتوسل بهذا الرياء للنفوذ إلىٰ قلوب العامة الجاهلين بحقائق الأمور، وبالتالي الوصول بصورة أسرع وأفضل إلىٰ تحقيق ما تهواه نفسه. أي أن ظاهر المرائي خادع فهو يظهر أنه يقوم بأعماله ابتغاء وجه الله وقربه ورضاه تعالىٰ، ويخفي هدفه الحقيقي وهو تحقيق شهواته النفسانية والتقرب إلىٰ الشيطان وكسب رضا الناس وليس

---

(١) الزمر: ٢٢.

(٢) المناجاة الثانية من المناجاة الخمسة عشر، وهي مناجاة الشاكين.

رضا الخالق، والعجب أنه لا يتوانىٰ عن الكذب حتىٰ علىٰ نفسه وخداعها ويفرح بما يقومُ به من الأعمال الملوثة بالرياء. يقول تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(١).

المرائي يعمل من أجل الناس وليس ابتغاء رضا الله جل وعلا وحفظ كرامته الإنسانية، يُحكىٰ أن الشبلي العارف المشهور خرج يوماً لشدة الحر من منزله وذهب إلىٰ دكان خباز ـ وكان هذا الخباز يرغب في رؤية الشبلي ـ ولم يرَهُ من قبل ـ أخذ الشبلي رغيفاً من الخبز، فانتزعه الخباز من يده وقال: لا أعطيك هذا الخبز أيها البائس. لم يعترض الشبلي بشيء وتابعَ طريقه، فقال أحد الأشخاص ـ رأىٰ ما جرىٰ ـ معاتباً الخباز: ويحك إنه الشبلي العارف فكيف تعاملت معه بهذه الصورة؟! فترك الخباز دكانه بسرعة عندما سمع ذلك، وانطلق مسرعاً خلف الشبلي وقد سيطر عليه الأذىٰ والاضطراب، فلما لحق به هوىٰ علىٰ قدميه مقبّلًا ومعتذراً، فقال له الشبلي: إن أردت جبران ما فعلت فعليك بدعوةِ عدد من الأشخاص لطعام الغداء غداً وسأحضر المأدبة أنا أيضاً.

وافق الخباز علىٰ ذلك وأعد مأدبة ملوكية ودعا الكثيرين إليها. فلما تناول ضيوفه طعامهم وقاموا عن المائدة قال أحد العشاق للشبلي: أنا لا أعرف الحسنَ ولا القبيح، فأخبرني مَن هم أهل النار ومَن هم أهل الجنة؟ أجاب الشبلي: انظر إلىٰ مضيفنا لقد أعدَّ هذه المأدبة بسبب شهرتي أنا ولكنه امتنع عن عطاء رغيف واحد ابتغاء وجه الله!

إن علىٰ المرائي أن يتوقع الأجر والثواب من الذين قام بأعماله من

---

(١) الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤.

أجلهم[1]، وكان هدف الشبلي من طلبه إقامة هذه المأدبة إيقاظ المرائي من نوم الغفلة، ولكن هذا لا يعني أن يقوم الآخرون بمثل ما قام به الشبلي إذا رأوا عملًا يقوم به بعض الأشخاص رياءً، وعلىٰ أي حال، إن علىٰ المرائي أن يعلم أن الله سيحوله لأخذ الأجر علىٰ أعماله إلىٰ الذين قام بها من أجلهم، عن الإمام الصادق ـ سلام الله عليه ـ أنه قال لعباد بن كثير البصري في المسجد: «**ويلك يا عبادُ، إياك والرياء، فإنه مَن عمل لغير الله وكله اللّٰهُ إلىٰ مَن عمل له**»[2].

إذا أردتم معرفة حقيقة النية في أعمالكم وهل هي لله أم لا، فأعرضوا أنفسكم علىٰ المعيار الذي يبينه أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله: «**ثلاثُ علامات للمرائي: ينشطُ إذا رأىٰ الناس ويكسل إذا كان وحده، ويُحب أن يُحْمَد في جميع أموره**»[3].

إن علاج الرياء ـ وسائر أمراض القلب ـ لا يتحقق إلا بتقوية الإيمان، فعلىٰ الإنسان أن يصل إلىٰ درجةٍ من اليقين التي يتمكن في ظلها نور الإيمان من كشف الظلمات والخبائث عن القلب وضمان الصحة والسلامة له. فإن من يشرق نور اليقين في قلبه يرىٰ الله حاضراً شاهداً في كل مكانٍ وفي كل حال، مطلعاً علىٰ ظاهره وباطنه، وحينئذٍ فلن يستطيع مثل هذا الشخص القيام بعملٍ لغير الله والتقرب لأي

---

(١) ولعل من أفضل سبل معالجة الرياء هو تعميق الإيمان القلبي بأن الخير كله بيد الله عز وجل، وأنّ كل ما سواه جلّ وعلا لا يملك شيئاً من نفسه ولا يستطيع إيصال شيء لغيره إلا أن يشاء الله جلت قدرته، وكذلك إدامة التفكير في ما ورد في الآيات الكريمة وأحاديث الشريعة من ذم هذا الداء الوبيل والشرك الخفي، والتدبر بعمق في تفاهةِ ما يحصل عليه من الناس بالرياء، وعظمة ما يفقده بسببه من الكرامات الإلهية في الدنيا والآخرة. يضاف إلىٰ ذلك السيطرة علىٰ شهوات نفسه والتدبر في الأخطار التي يوقعه فيها إتباعه لها.

(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الرياء، ح ١.

(٣) المصدر السابق، ح ٨.

مخلوق بأي عبادةٍ أو عملٍ لأنه يشعر عندما يصل هذه المرتبة وبصورة وجدانية بحضور الله وإطلاعه علىٰ جميع أحواله. كما أن الذي تنور قلبه بنور اليقين يقطع أمله بكل مخلوق ويتوجه إلىٰ الخالق لأنّه يعلم حينئذ أن لا استقلال لأي مخلوق وأن الخير كله بيد الله.

العجب:

يتولدُ هذا المرض من رؤية الإنسان لأحد الكمالات في نفسه فيعجب بها سواء كان ذلك الكمال حقيقياً أم وهمياً، وهذا المرض من كبائر المهلكات ومن أخطر الأمراض الخبيثة يقطع ـ بلا شك ـ مَن يصاب به عن الله مهما كانت المرتبة السلوكية التي بلغها، لذلك علىٰ السالك أن يرىٰ نفسه مقصراً في كل الأحوال ويرىٰ جميع عباداتِهِ وأعماله مشوبة بالعيوب وقلة الإخلاص لكي لا يبتلي بهذا المرض الخبيث، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**دَخَلَ رجلان المسجد: أحدهما عابدٌ والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صدّيقٌ والعابدُ فاسق! وذلك أنه يدخل العابد المسجد مُدِلاً بعبادته يُدلُّ بها فتكون فكرتُهُ في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في التندم علىٰ فسقه ويستغفر الله عز وجل مما صنع من الذنوب**»[1]؛ ولذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**مَن دخله العجب هلك**»[2][3].

وإذا أشرق علىٰ الإنسان ـ وهو في وادي الهلاك ـ نورُ إلطاف الحق جل وعلا، وأنقذه من المهلكة، فعليه أن يعتبر ذلك فضلًا من

---

(١) المصدر السابق، باب العجب، ح ٦.

(٢) المصدر السابق، ح ٤.

(٣) ومما ينفع في معالجة هذا المرض المهلك، إدامة التفكير القلبي في حقيقة أن كل ما في الإنسان من نعمةٍ وكمال هو من الله جل جلاله وليس من نفسه، فحتىٰ التوفيق للعمل الصالح هو من الله والجوارح التي يقوم بها بالعمل وسائر إمكاناته هي منه تبارك وتعالىٰ، ولذلك فالإعجاب يجب أن يكون بالمتفضل عليه بذاك التوفيق وهذه الإمكانات، وأن الله لو أوكل الإنسان إلىٰ نفسه لكان من الهالكين: «ربنا لا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين أبداً».

ربه دون استحقاق منه، وإلا فهو لا زال مبتلياً بمرض العجب وستحيطه آثاره السيئة، يروىٰ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال أيوب النبي** عليه السلام حين دعا ربَّهُ: يا رب كيف ابتليتني بهذا البلاء الذي لم تبتلِ به أحداً؟ فوعزتك أنك تعلمُ أن ما عرض لي أمران قط كلاهما لك طاعة إلا عملتُ بأشدهما علىٰ بدني! قال: فنودي: ومَن فعل ذلك بك يا أيوب؟! قال: فأخذ التراب فوضعه علىٰ رأسه ثم قال: أنت يا رب»[١]، ولذلك يقولُ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[٢]، وفي دعاء الإمام السجاد زين العابدين عليه السلام: «**وعبّدني لك ولا تفسد عبادتي بالعجب**»[٣].

إذا تحلىٰ السالك بالخضوع والخشوع في العبودية بحيث يكون عبداً لله حقاً؛ وتطهر عن العجب والكبر وتحلىٰ بالتذلل في حضرة الباعث للطمأنينة في القلوب؛ فإن الإلطاف الإلهية ستحيطه ـ دون استحقاق ـ بشرف «كليم الله»، فقد روي [عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال]: «**أوحىٰ الله عز وجل إلىٰ موسىٰ** عليه السلام أن: يا موسىٰ أتدري لِمَ اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا رب ولِمَ ذلك؟ قال: فأوحىٰ الله تبارك وتعالىٰ إليه أن يا موسىٰ إني قلبتُ عبادي ظهراً لبطن فلم أجد فيهم أحداً أذلَّ لي نفساً منك، يا موسىٰ إنك إذا صليتَ وضعت خدكَ علىٰ التراب. . .»[٤].

---

(١) سفينة البحار للشيخ القمي ٢: ١٦١، وفي قوله: «ومَن فعل ذلك بك يا أيوب» تنبيه إلىٰ أن التوفيق للأعمال الصالحة وإعطاء القدرة عليها وفتح القلب لها هو من النعم الإلهية علىٰ العامل بالصالحات، ولذلك ينبغي شكر الله عند القيام بكل عمل صالحٍ علىٰ التوفيق له وهذا من الأمور التي تدفع مرض العجب عن القلب.

(٢) النور: ٢١.

(٣) من دعائه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال وهو الدعاء العشرون من الصحيفة السجادية.

(٤) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب التواضع، ح ٧، وفيه إشارة إلىٰ التواضع لله عز وجل من العلاجات النافعة في إبعاد النفس عن الطغيان بالعجب.

وعلىٰ أي حال؛ يجب علىٰ السالك أن يجتنب بقوة كل ما يبعث فيه العجب، لكي لا يغرس هذا المرض جذوره في قلبه ويُفسد عليه سلوكه أو يجعله يتوقف عن السلوك كحدٍّ أدنىٰ، يُنقل أن الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان أمَّ جماعة من المسلمين في الصلاة، فلما أتم سلامها، طلب من المصلين أن يختاروا غيره لإمامتها لأنه قد خطر في قلبه أنه أفضل منهم[١].

الحرص:

وهو من أخطر الأمراض القلبية وأقوىٰ فروع حبِّ الدنيا وأشهرها، الحرص صحراء مظلمة لا حدود لها، وهوة سحيقة لا يظهر قعرها، يضل مَن يقع فيها ويهلك، لذلك يجدر بالتيقظ التائب من المعاصي أن لا يغفل عن هذا المرض الخبيث الذي يعيش ـ دائماً ـ في مرحلة الشباب والقوة وهو يشغل الإنسان بشدة، ولا يمكن لأحدٍ مواجهة قوته إلا بذكر الله تعالىٰ وألطافه، واعلم أن الإنسان يشيب فيصل فيه الحرص مرحلة الشباب! قال رسول الله ﷺ: «**يشيبُ ابن آدم ويشبُّ فيه خصلتان الحرص وطول الأمل**»[٢]، وينقل شيخ الأحرار الشيخ فريد الدين العطار أنه: «طلب ولد من والده أن يعلمه علم الكيمياء، فأجابه الأب: لقد غلبكَ الحرصُ فطلبت علم الكيمياء، فمن أجل أي شيء تطلب يا ولدي هذه الدنيا الدنية وهي دار المكر والعداوة؟ ولماذا تحرص عليها؟ إن عاقبة الدجاجة الحريصة التراب والتراب خالد. إن الحرص نارٌ إذا وقعت علىٰ الحطب أحرقته، فصبّ عليها ماء القناعة وإلا ستكون عاقبتك الخلود في النار يحيطك العذاب السرمدي ما دامت في ملكك ذرةٌ من المال الحرام»[٣].

---

(١) كتاب (قلب سليم) بالفارسية للشهيد آية الله السيد دستغيب: ٤٥٩.

(٢) جامع السعادات للمولىٰ النراقي ٢؛ ٧٨.

(٣) كتاب (إلهي نامه) بالفارسية للشيخ العطار: ٢٣٧.

فيا أيها التائب صاحب اليقظة الذاتية، إن كنت طالباً لسلوك مسالك طلّاب الحقيقة وأصحاب القلوب المتيقظة، خُذْ من هذه الدنيا بمقدار ما يقيم أودك وتستلزمه ضرورات العيش. فلقد شوهد عياناً أن الحريص عندما يحصل علىٰ ما كان يسعىٰ له طويلًا فيعجز علىٰ الانتفاع به، فلا ينتفع بأكثر من رغيفين من الخبز في حين يسجل التأريخ الخزي له لما ارتكبه في مسعاه ذاك.

يحكىٰ أنه: «لما وصل الإسكندر في فتوحاته إلىٰ الصين، أقام له «فغفور»[1] الصين احتفالًا ملوكياً ضخماً قلَّ نظيره، وقدم له أثناء ذلك، وعاءً ملأه بالجواهر والدرر وقال له: تفضلوا بتناول طعامكم لكي يبدأ أفراد عساكري بتناول طعامهم!

أجابه الإسكندر باستغراب: إن الجواهر والدرر لا تُؤكل، فما معنىٰ عملك هذا؟!

قال ملك الصين: أيها الفاتح العظيم؛ ألا تأكل في روما الجواهر؟! أجاب الإسكندر: كلا، إن طعامي لا يتجاوز قرصين من الخبز! فقال له فغفور الصين: ألم تجد في روما هذين القرصين؟ إن كنت تجدها هناك فلماذا سحقت إذن العالم وسفكت الدماء وخربت البلاد وأحطت آلاف الرعايا بالبؤس والشقاء والقتل؟ فاضطرب الإسكندر وتغيّر حاله مما سمع وقرر الرحيل عن الصين فوراً»[2].

---

(١) الفغفور: لقب كان يطلق علىٰ ملك الصين، راجع قاموس (فرهنك عميد) بالفارسية، ٢: ١٥٤٤.

(٢) مما لا ريب فيه أن التفكر باستمرار في محدودية إمكانات الإنسان علىٰ الاستفادة مما يحرص علىٰ الحصول وأنه تاركه علىٰ كل حالٍ بل وإن ما يحرص عنه هو من الزخارف الزائلة وأن ما عند الله خيرٌ وأبقىٰ، والتدبر في المواعظ القرآنية ومواعظ الأنبياء والأولياء بشأن الحرص، كل ذلك من الأمور التي تعين الإنسان علىٰ التحرر من أسر الحرص وناره الحارقة.

يقول الإمام الباقر عليه السلام: **«رب حريص على أمرٍ قد شقي به حين أتاه، وربّ كاره لأمر قد سعد به حين أتاه»**[1].

الحسد:

وهو من المعاصي القلبية وأصعب الأمراض الروحية القاتلة وأخبث الرذائل، بلاءٌ مهلك وفتنةٌ حارقة، فالحسد يوقع صاحبه بعقوبات الدنيا وعذاب الآخرة، فلا يدعه يخلو لحظة في دنياه من الألم والحزن، يتأذىٰ من رؤية أي نعمةٍ يتنعم بها الآخرون ولذلك فهو في أذىٰ مستمر لأن نعم الله علىٰ عباده متواترة لا تنقطع. يقول تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[2].

ويمكن إرجاع أسباب الحسد إلىٰ خبث النفس والبخل بالخير علىٰ عباد الله، هذا أولًا، وثانياً إلىٰ العداوة والحقد وهو أعظم أسباب الحسد لأن الإنسان يفرح عادةً إذا نزل بعدوه أذىً ومصاب، ولا يُستثنىٰ من ذلك إلا النوادر من أهل المجاهدة الذين تسلطوا علىٰ نفوسهم. أما السبب الثالث فهو حب الرئاسة والمال والجاه والسمعة والمدح، فالمبتلىٰ بهذا الحب لا يطيقُ أن يرىٰ منافسَهُ يتمتع بالجاه والجلال، بل هو يفرح ـ في بعض الحالات ـ بموته أو زوال النعمة عنه. والسبب الرابع هو الخوف من عدم حصوله علىٰ المطلوب وحصول منافسه عليه. وقد ذكروا عللًا أخرىٰ لوقوع الإنسان في نار الحسد.

يحذر عليٌ أمير المؤمنين عليه السلام من الحسد في جملة قصيرة بليغة فيقول: **«إياك والحسد فإنه شر شيمة وأقبح سجية وخليقة إبليس»**[3]،

---

(١) جامع السعادات ٢: ٧٨.

(٢) النساء: ٥٤.

(٣) معجم ألفاظ غرر الحكم ودرر الكلم: ١٢٨٦.

كما يحذر من ابتلىٰ به ولم يعالجه بزوال الإيمان من قلبه، فيقول عليه السلام: «**الحسد يميتُ الإيمان في القلب كما يميتُ الماء الثلج**»[1]، وهذا ما كان يحذر منه رسول الله صلوات الله عليه أصحابه منه: «**ألا إنه قد دبَّ إليكم داءُ الأمم من قبلكم وهو الحسد ليس بحالق الشعر لكنه حالق الدين، وينجي فيه أن يكف الإنسان يده، ويخزن لسانه، ولا يكون ذا غمر علىٰ أخيه المؤمن**»[2].

إذا تسلل هذا المرض إلىٰ السالك فعليه أنه يعرف أنه بذلك قد اقترب من الشيطان وابتعد عن طاعة الرحمان وعبادته، يقول رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ: «**معاشر الناس إن إبليس أخرج آدم من الجنة بالحسد فلا تحسدوا فتحبط أعمالكم**»[3]، لذلك يجب علىٰ المتيقظ التائب والسالك أن يجتنب آفات الحسد التي تهدده، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**آفةُ الدين الحسد والعجب والفخر**»[4]، وقد أمر الله تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۞ . . . وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[5].

كيف نشخص أمراض القلب:

إن سقم القلب يبعد الإنسان عن جميع شؤون الإنسانية المعنوية ويمهد بذلك لإهلاكه، فيظهر بوضوح الضلال في أعماله وأقواله،

---

(١) مستدرك الوسائل للميرزا النوري ٢: ٣٢٧ من الطبعة القديمة، الباب ٥٥ من أبواب جهاد النفس، ح ٦.

(٢) وسائل الشيعة ١٥: ٣٦٨، أبواب جهاد النفس، الباب ٥٥، تحريم الجسد، ح ٦، والغمر في قوله «غمر علىٰ أخيه المؤمن»، هو الحقد والنيل كما كتاب صحاح اللغة ٢: ٧٧٣.

(٣) مستدرك الوسائل ٢: ٣٢٧، الباب ٥٥ من أبواب جهاد النفس، ح ٢.

(٤) وسائل الشيعة ١٥: ٣٦٦، ح ٥.

(٥) الفلق.

وكذلك إضلاله للآخرين، في حين إذا كان القلب يتمتع بنعمة الصحة والسلامة، فإن الصبغة الإلهية للأعضاء والجوارح تتجلىٰ بوضوح في الحركات الصادرة عنها والمعبّرة عن حياة القلب والتي يوليها طلاب السير والسلوك اهتماماً خاصاً، فهي بمثابة النور المتألق في ظلمات الأهواء النفسانية والشيطانية لحياة الغافلين والضالين، وهذا النور يوفر الإمكانات اللازمة لاستيقاظهم:

اذا صلح القلب صلحت الأفعال واذا فسد فسدت

فصلاح القلب صلاح البدن وليس ثمةَ من يشك في ذلك

اذا فسد القلب فسد الإنسان، فهو اما حليف الكأس واما عابد[1]!

لقد بَيّنَ مشائخُ أهل السلوك الذين ارتوا من شراب المعرفة عدة معايير لتشخيص أمراض القلب وعرفوا المرضىٰ بشاب «السكر وماء الورد»[2]، ولكن يجب السعي للقاء الطبيب والحصول علىٰ وصفة العلاج منه، وحسب تعبير شيخ شيراز ينبغي حصر الهمة في «التفاني بالروح من أجل رؤية الطبيب»[3]؛ وهذا هو طريق الحصول علىٰ نعمة الصحة والسلامة؛ ونحن هنا نوضح ـ باختصار ـ عدة من الأدوات لتشخيص الأمراض القلبية ونترك التعمق في ذلك لطلاب الصحة والسلامة حقاً:

---

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٢) إشارة إلىٰ ما ورد في بيت شعر للشاعر العارف حافظ الشيرازي يقول فيه ما ترجمته النثرية: «تفضل الحبيبُ عليَّ بأن سقاني رضاب السكر وماء الورد من ثغره، وثغره النرجسي هو طبيب قلبي المريض».

(٣) ترجمة نثرية لشطر بيت بالفارسية للشاعر حافظ الشيرازي.

العقل: إن جميع ما في الإنسانِ من محاسن هي ثمرة العقل وهو وسيلة معرفة المعبود؛ فهو الذي يعرفه الإمام الصادق عليه السلام بالقول بأنه: «**ما عبد به الرحمان**»[1]؛ وهو أيضاً ما يميز به الإنسان حقيقة الدنيا وزخارفها وهو أيضاً الذي يدفعه للإعراض عنها. يقول الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام: «**إن العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب؟ وترك الدنيا من الفضل وترك الذنوب من الفرض**»[2]، ولذلك فهو خير دليل للمؤمن كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**العقل دليل المؤمن**»[3]، لذلك فما أحرىٰ بالمرء أن يتخذ العقل صديقاً ورفيقاً لأن شجرة السعادة في وجود المرء ترتوي من غيث سحاب العقل، ويقول الإمام الرضا عليه السلام: «**صديق كل إمرءٍ عقله**»[4]، وفي المقابل نجد أنه: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[5]، وما أجل قول «باب طاهر عريان» المتخلي عن كل ما سوىٰ الحق تعالىٰ: «العقل سراج العبودية» لأنه يُميزُ بين الحق والباطل، وبين الطاعة والمعصية.

وقد قسم أئمة أصحاب السلوك العقل إلىٰ نوعين: «عقل المعاش» ومكانه الرأس، و«عقل المعاد» ومحله القلب[6]، يقول شيخ هرات الشيخ عبد الله الأنصاري: «إن العقل فينا هو عقال القلب، يحجبه عن كل ما سوىٰ الحبيب تعالىٰ ويحبسه عن الأهواء الضالة»[7].

وعلىٰ أي حال، ينبغي اعتبار العقل أحب خلق الله، ومَن يكمل

---

(١) أصول الكافي، ج ١، كتاب العقل والجهل، ح ٣.
(٢) المصدر السابق، ح ١٢.
(٣) المصدر نفسه، ح ٢٤.
(٤) المصدر السابق، ح ٤.
(٥) يونس: ١٠٠.
(٦) كتاب أسرار التوحيد: ٢١٥، وكذلك شرح القيصري: ٤١.
(٧) كتاب عدة الأبرار ١: ١١٠.

فيه يفوز بالألطاف الإلهية الخاصة حتماً، يقول الإمام الباقر عليه السلام: **«لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقتُ خلقاً هو أحبّ إلي منك، ولا أكملتك إلا فيمن أحبّ»**[1].

إذا كان الحاكم علىٰ وجود الإنسان هو العقل سيطر علىٰ غرائزه وسيرها علىٰ جادة الاعتدال وقاد الإنسان في مسير التكامل والسير إلىٰ الله، فإذا وصل العقل أثناء طي هذا المسير إلىٰ «مرتبة الجنون»، عندها يسيطر العشق علىٰ وجود الإنسان برمته، فيقوم الإنسانُ حينئذٍ بأعمالٍ تعبر عن الشعور بألم فراق الحبيب ـ جل وعلا ـ.

التفكر: إذا فكر الإنسان قبل القيام بأي عملٍ بآثاره الدنيوية والمعنوية فإنه سيجتنب ولا شك الأمراض القلبية المدمرة والتي تسلبه شرف الإنسانية ويسعىٰ لمكافحتها مثلما يفعل تجاه الأمراض البدنية، وعندها يغلق بوجه أمراض القلب أبواب النفوذ إليه ويمنع الأرجاس ـ ذات الظاهر المخادع ـ من دخول قلبه وسلبه الطهارة:

قف دوماً علىٰ باب القلب تحرسه، ولا تدع غير الحبيب يدخله ولا للحظة[2].

يقول سيدنا عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: **«نبّه بالتفكر قلبك»**[3]:

---

(١) أصول الكافي، كتاب العقل والجهل، ح ١.

(٢) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٣) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب التفكر، ح ١، ولا يخفىٰ أن التفكر الممدوح ـ كما هو المستفاد من هذا الحديث الشريف ـ يشمل ما هو أوسع مما ذكره المؤلف بشأن التفكر بآثار العمل قبل القيام، فيشمل التفكر في حاله وهويته ومعاده وما فيه من أمراض وسبل مكافحتها وغير ذلك مما ورد الحث عليه في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة فجميعها تؤدي إلىٰ تنبيه القلب وإنقاذه من الغفلة.

التفكر انتقالٌ من الباطل إلىٰ الحق؛ وهجرةٌ من الجزء إلىٰ رؤية الكل المطلق[1].

اجتناب حسن الظن بالنفس: إن حسن الظن بالنفس هو أهم عوامل حجب الإنسان عن حقيقة ما يكمن في باطنه، والسماح لخبايا الباطن بإخفاء صورتها الحقيقية، بمعنىٰ أنه يؤدي بالإنسان إلىٰ تصورها خالية من العيوب والرذائل، وبالتالي فإن حسن الظن بالنفس يحجب الإنسان باستمرار عن تشخيص أمراض القلب فتستغل الأمراض هذه الغفلة لترسيخ جذورها في أعماق روحه وهو غافل عنها لأن النفس الأمارة بالسوء تزين للإنسان الأمور الحيوانية وتصور له القبائح والعيوب والخبائث بأنها محاسن وكمالات محببة للقلب، يقول تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾[2].

إذن فالذين يحسنون الظن بنفوسهم عاجزون عن تشخيص عيوبهم الباطنية، وبالتالي فهم عاجزون عن إصلاحها ومعالجة الآثار السيئة الناتجة عنها، في حين أن العمل بوصية مولىٰ الموحدين علي أمير المؤمنين عليه السلام ينقذ الإنسان من السقوط في شباك هذه الغفلة المدمرة، ولا يسمح لحسن الظن في غير موارده المناسبة بالتسلل إلىٰ القلب، يقول عليه السلام: «**إن المؤمن لا يُمسي ولا يصبح إلا ونفسه ظنون عنده فلا يزال زارياً عليها ومستزيداً لها**»[3]، أي أنه يتهمها باستمرار ويزري عليها عيوبها، ويطالبها بأعمال أفضل باستمرار؛ وإذا مدحه مادح خشي من آثار هذا المدح علىٰ نفسه، ورد عليه بأنه أعرف بنفسه منه والله أعرف بنفسه منه كما ينبه لذلك أمير المؤمنين عليه السلام[4]. ومَن التزم بهذه

---

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٢) فاطر: ٨.

(٣) معجم ألفاظ غرر الحكم ودرر الكلم: ١٣٠٢، ح ٥٦٢.

(٤) كان عليه السلام إذا مدحه قوم في وجهه يقول: «اللهم إنك أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي =

الوصية فإنه لن يصاب بهذا المرض ـ حسن الظن بالنفس ـ وهو سيف قاطع مسموم.

الجليس والمعاشر: ينبغي أن يكونَ المستيقظ التائب أو المتجلي في قلبه نور اليقظة أن يكون قد استيقنَ بأن الجليس هو أحد أشد العوامل تأثيراً في تصوير القبائح محاسن والعيوب كمالات، فيجعل الإنسان غافلا عن الآثار المدمرة لهذه الواردات الملوثة لباطنه والتي تسعىٰ إلىٰ نشر جذورها في أعماق قلبه، وبالتالي يسلبه القدرة عن قمعها وتطهير روحه منها فيجعله بذلك في غفلة دائمة أو مصاب بالأمراض المزمنة.

وفي المقابل يوجد أصدقاء يبينون للإنسان المحاسن والقبائح علىٰ ما هي عليه دون زيادة أو نقصان، فهم مصداق لقول سيد الكائنات ﷺ: «**المؤمن مرآة المؤمن**»[1]، فينبغي للمستيقظ التائب أن يجعل نصائحهم نصب عينه ويفرح بما يعرضونه عليه من عيوبه بهدف إصلاحها، فهؤلاء هم أفضل الأصدقاء وخير الإخوان، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**أحب إخواني إلي من أهدىٰ إليّ عيوبي**»[2]، وقال رسول الله ﷺ: «**مثل الجليس الصالح مثل صاحب المسك إنْ لا يهب لك منه تجد ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل القين إن لم يحرقك بشرر ناره علق بك من ريحه**»[3].

= منهم، اللهم اجعلنا خيراً مما يظنون واغفر لنا ما لا يعلمون»، تصنيف نهج البلاغة: ٨١٣ ـ ٨١٤، الحكمة رقم ١٠٠ من باب الحكم من نهج البلاغة.

(١) في سفينة البحار (١: ٤٠) عن كتاب النوادر للقطب الراوندي أن رسول الله ﷺ قال: «**المؤمن مرآة لأخيه المؤمن ينصحه إذا غاب عنه، يحيطُ عنه ما يكره إذا شهد ويوسع له في المجلس**».

(٢) تحف العقول، ٣٨٥، سفينة البحار ٢: ٢٩٥.

(٣) صحيح البخاري ٣: ٨٢ والحديث مروي في الكثير من المصادر.

أجل، إذا لم ينقل لك جليس السوء مفاسده الباطنية منعك حتماً من تتبع معائبك بنفسك.

علامات مرض القلب

لسلامة القلب وصحته علامات ولمرضه أيضاً علامات، فعلامات سلامة النفس والقلب تظهر للإنسان إذا نزلت عليه من سحاب التفضل واللطف الرباني أمطار الرحمة الربانية وأوصلته جذبة ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾[١] إلىٰ مقامه المعلوم، وأحرقت في وجوده كل أهواء النفس الظلومة الجهولة بشموع جلال الحضرة الأحدية.

وفي المقابل، إذا بقي القلب في حظيرة الحيوانية وابتعد عن كعبة الوصال القدسي وصار أسير صفات الشيطنة والسبعية الذميمة، فهو قلب مريض وعلامات مرضه واضحة للجميع تفضحه أمام الملأ، والأعمال الظلمانية الشيطانية التي تظهر علىٰ جوارحه هي وليدة مرض قلبه. وإذا أراد الإنسانُ أن يخرق ـ بعزم الرجولة ـ حجب كل هذه الظلمات ويُقطّع سلاسل الأغلال ويتحرر من أسرها لكي يتوجه إلىٰ كعبة الوصال، فعليه أن يعلم أن علامات أمراض القلب هي إحدى أفضل وسائل المعرفة، فإذا ارتكب ذنباً اعتبره علامة لمرض قلبه فيشخص المرض الذي أوقعه في هذا الذنب، ثم يبادر فوراً إلىٰ معالجة هذا المرض وتحمل آلام المعالجة مهما كانت[٢].

---

(١) الفجر: ٢٨.

(٢) هذه من الفوائد التربوية والسلوكية المهمة التي تعين السالك علىٰ تطهير قلبه من جذور وقوعه في الذنوب والمعاصي بمختلف مراتبها، فإذا تدبر بدقة، في دوافعه للوقوع في أي ذنب يصدر عنه عرف ـ بتوفيق الله وعونه ـ المرض القلبي الخفي الذي خفي عنه وأدىٰ إلىٰ وقوعه في هذا الذنب فاجتهد بالاستعانة بالله عز وجل في معالجة المرض الذي أوقعه في هذا الذنب وبالتالي تطهر من سببه الأصلي وحظي بمرتبة من العصمة عن الوقوع في هذا الذنب، راجع تعليقنا علىٰ سر عدم اكتمال توبة إبليس ضمن الحديث عن سبل ومداخل نفوذ الشيطان إلىٰ الإنسان.

معالجة محل تجلي نور اليقظة:

لكل طبيب من أطباء الأرواح أسلوب خاص في معالجة الأمراض القلبية لكنهم جميعاً يرجعون إلىٰ كنز الشفاء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(١) فيأخذون منه ما يعالجون به الأرواح العليلة ويشفونها ببركاته، وهم ينتفعون بعد القرآن الكريم من وصايا المعصومين عليهم السلام، وها نحن ننقل نماذجاً منها:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أكثروا ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويُزهد في الدنيا**»(٢)، وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**ألا فاذكروا هادم اللذات ومنغص الشهوات وقاطع الأمنيات عند المساورة للأعمال القبيحة**»(٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**لا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالىٰ من النفس والهوىٰ، وليس لقتلهما في قطعهما سلاحٌ وآلةٌ مثل الافتقار إلىٰ الله والخشوع والجوع والظمأ بالنهار والسهر بالليل، فإن مات صاحبه مات شهيداً وإن عاش واستقامَ أداهُ عاقبته إلىٰ الرضوان الأكبر...**»(٤).

وما دامت أمراض القلب المهلكة مستحوذة علىٰ قلب وكيان المستيقظ والسالك، فهو عبدٌ للذات الشهوات، وما لم يتحرر من عبوديتها فلن يذوقَ لذة الإيمان، يقول عين القضاة الهمداني: «أيها السالك! إذا لم تحرر وتتخلص من أسر العبوديات فلن تدرك أبداً ما

---

(١) الإسراء: ٨٢.

(٢) المحجة البيضاء ٨: ٢٤٠.

(٣) تصنيف نهج البلاغة: ٩٢١، الخطبة رقم ٩٧ من النهج.

(٤) المحجة البيضاء ٨: ١٧٠.

أقوله، فاصبر حتىٰ تصل وترىٰ، أنت لا زلت مقيماً في بيت البشرية أسير هوىٰ النفس، فما أدراك بما أقول؟!»[1].

إن بايزيد البسطامي الذي أحرق النفس في دنياه بنار السلوك وداوىٰ جراح الرياضيات والمجاهدات يتمنىٰ حرق نفسه في جهنم أيضاً! يقول: «لو قال لي الله تعالىٰ في ذلك العالم: اطلب شيئاً، فإنني سأطلبُ بعد المغفرة أن يأمر بإلقائي في جهنم وإغراق هذه النفس في نيرانها، فقد آذتني كثيراً في الدنيا وتحملت منها الكثير لكي أذوق لذة الكثير من المقامات»[2].

إذا أراد المستيقظ التائب السالك النجاة من ضغوط النفس وعذابها وآذاها فعليه أن يتحمل صعاب طريق السلوك، وأن يمسك بزمامها قبل أن تحترق بنار جهنم، فيذيقها ـ باختياره ـ نار الرياضات والمجاهدات الحارقة، ويذري رمادها في وادي التوبة النصوح، فببركة تحمل هذه الآلام والصعاب السلوكية شرب بايزيد شراب المقامات بكأس ساقيها، وذاق حلاوة لذة طهارة الباطن وسلامته.

وقد اتبعَ أطباء النفوس ـ في تهذيبها واستبدال أخلاقها المذمومة بأخلاقٍ حميدة ـ أسلوب معالجة كل صفةٍ مذمومةٍ يرونها في المريض بضدها، فيعالجون مثلًا الحرص بالزهد والإعراض عن الدنيا، ويعالجون مرض البخل بدواء الإنفاق والإيثار، فيشفىٰ المريض بذلك. وهذا منهج علاجي معقول وجيد ومناسب، ولكنه يحتاجُ إلىٰ زمنٍ طويل لتحويل كل صفةٍ مذمومة إلىٰ صفةٍ حميدة. أما طريقة مشايخي ـ أنا الحقير ـ قدس الله أرواحهم في معالجة هذه الأمراض فهي طريقة

---

(١) كتاب التمهيدات: ٢٤٧.

(٢) كتاب (شرح تعرف) بالفارسية ١: ٤٧.

سلوكية خاصة اتبع مناهجها الكثيرون من أساطين علم الأخلاق طوال التأريخ وحصلوا علىٰ نتائج طيبة كثيرة، فهؤلاء الأعاظم بدأوا العلاج من القلب واجتهدوا في تطهيره، ولم يجعلوا بداية العلاج في معالجة الأخلاق نفسها، لأن تطهير القلب أولاً يؤهله لتلقي الفيوضات الغيبية، وعندها يكون بالإمكان تبديل الصفات الذميمة بالخصال الحميدة في فترةٍ قصيرة ببركة الفيوضات الإلهية.

إن تصفية القلب تعني تجريده وجعله مجرداً، والمجرد يشم «رائحة الله» في كل شيءٍ وبصورة مجردة، وعندها يتطهر ظاهر الإنسان من الدنيا التي تصده عن الفوز بشرف ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1]، فإذا وصل ظاهر الإنسان إلىٰ مقام التجرد عن غير الله تبارك وتعالىٰ، تطهر باطنه ـ وهو القلب ـ عما سوىٰ الله جل وعلا، أي تطهر عن كل ما يبعده عن الحق جل جلاله.

إذا تحقق هذا التجريد ـ بالصورة المناسبة لمقامه ـ فإنّ مما لا شك فيه أن عفاريت وأوباش الصفات الذميمة للنفس ستستسلم، ويستقر سلطان العشق القدسي في القلب، فتخضع له تلك العفاريت والأوباش وتطيعه وتتوب عن المكر والخداع والخبائث:

انتظمت شؤون الحبيبة، لتبقَ إلىٰ الأبد علىٰ هذا الحال، فقد صار كل كفرها ايمان[2].

إذا بلغ القلب مقامه الإلهي وتطهر من صدأ الطبيعة تزين عندها بجواهر ولآلىء اليقين والإخلاص، التوكل والصدق، الكرم والمرؤة، الفتوة والسخاء والحياء، وجميع أنواع الصفات الحميدة والخصال

---

(١) الذاريات: ٥٠.

(٢) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

الكريمة، وعندها يحل فيه الحبيب الحقيقي، فيزول الغم عنه ـ إذا كان حاله كحال يعقوب ليسكن بيت الأحزان في صدره ـ ويحل الفرح فيه محل الحزن، والسلطنة محل المحنة، وعزّ الوصال محل ذل الفراق، فإن شرف المؤمن هو أن يكون مصداقاً للحديث القدسي: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلبُ عبدي المؤمن**»[1].

ولا يستطيع أي عضو أو خُلق أن يتحرك ـ في هذا المقام ـ انطلاقاً مما يقتضيه طمعه، لأن تحركه لا يكون إلا بأمرِ الحق تعالىٰ وإشارته جل وعلا وهو القائل: «**كنتُ له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً، بي يسمعُ وبي يبصر وبي ينطق وبي يبطش**»[2].

لنكن أطباء لقلوبنا

إن أول ما يجب علىٰ الإنسان الاهتمام به هو سلامة القلب والحيلولة ـ بالمراقبات الدقيقة والمستمرة ـ دون ورود أي مرض إليه، وإن من حسن التوفيق أن الأنبياء لا سيما خاتمهم ـ صلوات الله عليه ـ والأئمة المعصومين عليهم السلام قد بينوا للناس جميع ما يحتاجه الإنسان في طريق السعادة والهداية، بل وبينوا أيضاً سبل العمل بكل تلك الوصايا الباعثة للحياة الحقة، لا تصطبغ النفس بالصبغةِ الحيوانية وتدمر بالحياة البهيمية الكرامة الإنسانية.

لقد بينوا الأمراض وعلاماتها، ودواء الأمراض النفسانية وطريق معالجتها لكي يكون الناس علىٰ علم بذلك فيقوموا بأنفسهم بمهام الطبابة، لأن كل إنسان هو أعرف بمحاسن نفسه وقبائحها، يقول تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾[3]، ولكن قد يجهل الإنسان أحياناً

---

(١) (٢) تقدمت مصادرهما.

(٣) القيامة: ١٤.

بخفايا باطنه لأن ميكروبات الأمراض الباطنية تكون قد استحوذت عليه، وهنا يجب عليه العمل بوصاياهم ـ صلوات الله عليهم ـ بشأن الأمراض القلبية الخبيثة مثل الشرك الخفي. ومما لا شك فيه أنه سيكون علىٰ علم كاملٍ بها وبطريق علاجها بعد طيه لسيره السلوكي؛ ولكن معظم الأمراض يستطيع الإنسان تشخيصها في نفسه بصورةٍ أفضل مما يمكن للآخرين، فهو أعلم بما يخفيه باطنُهُ، يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«إنك قد جعلت طبيب نفسك، وبُيّنَ لك الداء، وعُرّفت آيةُ الصحة، ودُللت علىٰ الدواء، فانظر كيف قيامك علىٰ نفسك»**[(١)].

وقد أوكلوا مهمة مراقبة القلب للإنسان نفسه، لكي يحرسه من هجوم الأمراض والخبائث عليه، يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: **«ينبغي أن يكون الرجلُ مهيمناً علىٰ نفسه مراقباً قلبه حافظاً لسانه»**[(٢)]، من هنا ينبغي للإنسان أن يخضع نفسه وقلبه لرقابة صحية علاجية مستمرة وحازمة، فإذا شعر بالمرض بادر لمعالجته ـ قبل استفحاله ـ بالمعالجات الأولية، ثم يسعىٰ للتعرف علىٰ أطفال الحق تعالىٰ فيدخل بينهم، يقول الشبلي العارف الشهير: «الصوفية هم أطفال يتربون في أحضان الحق تعالىٰ» ويقول مولانا جلال الدين محمد الخراساني [ما ترجمته النثرية]:

الأولياء هم أطفال الحق تعالىٰ، فأنت غائبٌ حاضرٌ يا فتىٰ لا تدري ما الخبر.

---

(١) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب محاسبة العمل، ح ٦. ويُلاحظ هنا أن المستفاد من هذا الحديث الشريف هو أن علىٰ المؤمن أن يستعين بما ورد في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة لمعالجة أمراضه القلبية، في مختلف مراحل العلاج بمعنىٰ أن يتعرف منها علىٰ ماهية هذه الأمراض وعلاماتها وعلامات إصابة الإنسان بها وعلامات تطهره منها، ثم يؤخذ من القرآن والسنة الأدوية اللازمة ـ أي سبل معالجتها، وكذلك سبل الوقاية منها.

(٢) معجم ألفاظ غرر الحكم ودرر الكلام: ١٣٩٧، ح ١٧٥٤.

الطبيب تلميذ الحق تعالى:

مثلما تذهبون عادةً إلىٰ طبيب الأبدان الحاذق إذا هدد مرضٌ سلامتكم البدنية، عليكم الرجوع إلىٰ الطبيب الروحاني الذي درس علم الطب الروحاني[١]، فور ظهور علامات الأمراض القلبية فيكم، لأن الطبيب الروحاني قد تحرر من أسر نفسه واتصل بالحق تعالىٰ: «إنه فانٍ عن نفسه وقد قال: الله، عندما قال: هو»؛ كما أنه عارفٌ بالكامل بالآفات النفسانية والوساوس الشيطانية، وبدورها المخرب للحياة المعنوية للإنسان، وبما تحمله معها من لوث وخبث إلىٰ داخل الإنسان، كما أنه صاحب تجارب بشأن سبل الوقاية منها وسبل معالجة المصابين بها، وقد تعلم من المشائخ ما لا يمكن بيانه بالقلم بل هو يتناقل عبر الصدور. يقول مولانا جلال الدين محمد المولوي [ما ترجمته النثرية]:

إن دفتر الصوفي ليس خطوطاً سوداء وكلاماً، بل هو قلبٌ أبيضٌ ولكن ليس كبياض الثلج

إن زاد العالم آثار القلم، فما هو زاد الصوفي؟ إنه أنوار السالك
أين ذلك القلب الذي يكون مطلعاً لأنوار القمر،
ونصيبُ العارف هو فتح الأبواب.

من هنا يجب علىٰ المريض أن يسلم نفسه لهؤلاء الأباء

---

(١) لا يمكن لغير المتصل بينابيع الوحي الإلهي معرفة أسرار الروح التي هي من أمر الله والقلب الذي هو اللطيفة الروحانية الغيبية في الإنسان، ولذلك لا يمكن الاطمئنان لغيره في الرجوع إليه لمعالجة أمراضها، وبالتالي فإن أطباء القلوب والأرواح هم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام والذين يتلقون منهم أسرار وخفايا هذا الطب فيجب الرجوع في ذلك إلىٰ الذين طووا منازل السلوك إلىٰ الله عز وجل بهداية أهل بيت النبوة ـ صلوات الله عليهم ـ والتسليم لهم لا لغيرهم.

الروحانيين لكي يعالجوا قلبَهُ قبل أن يموت، فإذا وجد المريض طبيباً روحانياً قادراً علىٰ إبعاد مرض الموت عن قلبه فعليه أن يتمسك به ولا يتركه بأي حالٍ من الأحوال:

تمسك بأذياله فوراً دون تردد لكي تجد لك مأمناً من آفات آخر الزمان[1].

إذا حظيتم بشرفِ صحبة صاحب قلبٍ حيّ فسلموا زمامكم لكل ما يأمركم به، فالسلامة والصحة رهينة تسليم المريض لطبيبه وليست رهينة الدواء والعلاج وحسب، يقول مولانا المولوي [ما ترجمته النثرية]:

لا شأن لنا بالاقتناع، إن دأبنا التسليم وطاعة الأوامر.

كما يجب علىٰ السالك أن يجتهد وهو برفقة هذا الطبيب وفي كل الأحوال، بتربية النفس وتهذيبها لكي يطهرها من أصل الكفر، يقول شيخ الطائفة جنيد البغدادي: «إن أصل الكفر هو التحرك علىٰ وفق ما تريده النفس»[2]، والذي أتقن الطب الروحاني يكون قد مزق أخطر الحجب وهي ـ حسبما يقول ذو النون المصري ـ: «إن أشد الحجب حجب العُجب بالنفس والنظر لها واتباعها، لأن اتباعها خلاف رضا الله»[3].

وخلاصة الأمر أن أطباء الأرواح يعرفون ما تثيره النفس من فتن لصاحبها، ولديهم الأزمة التي لو ألجموها بها ـ بلطف ـ فلن يكون أمامها من سبيل سوىٰ العبودية، يقولُ الشيخ عبد الله الأنصاري عن الأطباء من تلاميذ الحق تعالىٰ: «هم غواصو بحار علوم الحقيقة الذين

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٢) كتاب كشف المحجوب: ٢٥٠.

(٣) المصدر السابق.

يلتقطون جواهر الحكمة وهم في سماء الفطرة شموس مستقرون في العرش، وهم مقبولون في حضرة الألوهية وأصداف أسرار الربوبية».

هؤلاء الأطباء لا يعتمدون علىٰ نتائج تحليل البول في معالجة المرضىٰ وتشخيص الأمراض، بل هم يستدلون علىٰ ذلك بوحي الرب الجليل، يقول مولانا [ما ترجمته النثرية]:

نحن أطباءٌ وتلاميذٌ للحق تعالىٰ، لما رآنا البحر المحيط انفلق

أطباء الطبيعة ينظرون إلىٰ القلب بنظارة «النبض»

أما نحن فننظر إلىٰ القلب جيداً بدون واسطة، ففراستنا تجعلنا ننظر إليه من المنظر الأعلىٰ

أولئك أطباء الطعام والثمار وبطبهم يعتدل حال الروح الحيوانية

أما نحن فأطباء الأفعال والأقوال، تلهمنا في علاجها أشعةُ نور الجلال

أولئك الأطباء يستدلون بحال «البول»، أما دليلنا فهو وحي الجليل

لا نطلب من أحدٍ أجراً علىٰ العلاج، فأجرنا أن يأتينا من الحق تعالىٰ.

أجل هؤلاء الأطباء لا يريدون من مرضاهم أجراً لأنهم مصداق: «**أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري**»[1]، وهم الذين يصفهم مولانا جلال الدين محمد المولوي الخراساني ـ قدس الله روحه العزيزة ـ [بما ترجمته النثرية]:

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ٤ : ٢٥٦.

يعرف الأنبياءُ أضدادهم، معرفة الذين لا يشتبه عليهم أولادهم
مثلما يعرفون أبنائهم، يعرفهم المنكرون بالف دليل وألف علامة
لكنهم يخفون معرفتهم وينكرون ويتظاهرون بعدم المعرفة حسداً لهم
ولكن كيف يعرفهم؟ قال: ان كيف في مكان آخر،
فلقد قال: لا يعرفهم غيري فذر
انهم تحت قبابي كامنون، لذلك لا يعرفهم غيري أنا ربهم.

هؤلاء الأطباء مخفيون أخفاهم حجاب العصمة القدسية لحضرة الحبيب، فلقد قالوا: «**إن لله أولياءَ أخفياءَ**»[(١)]:

وآخرون يسيرون بخفاءٍ شديد، لا يكونون أبداً من الذين يُشار اليهم بالبنان
لديهم كل شيء، ولكن لا ترىٰ عين أحدٍ علىٰ ما عندهم ولا للحظة[(٢)].

أجل، لا يعثر علىٰ هؤلاء الأطباء وهم تلاميذ الحق تعالىٰ، سوىٰ الطالب لهم بإخلاص والسالك المحتاج لهم، فهؤلاء هم ـ ولا غير ـ الذين يعرفون عظمة قدرهم، يقول الشيخ الشهيد مجد الدين البغدادي عنهم: «لا يعرف أحدٌ قدرهم ولا يمكن لأحدٍ أن يؤدي حقهم»[(٣)]:

(١) أخرج ابن ماجه في سننه ٢: ١٣٢١ عن النبي ﷺ: «**إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء...**»، وفي صحيح مسلم ٤: ٢٢٧٧ عنه ﷺ: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**»، **ويقول الشيخ الأنصاري عن هذه الطائفة: «أصحاب السر هم الأخفياء الذين ورد فيهم الخير»، راجع شرح منازل السائرين للمحقق الكاشاني: ٤٧٢.**

(٢) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٣) كتاب مرصاد العباد: ٢٣٣.

خسر مَن لا يعطونه شرف الوصال، ولا يسقونه بكأس
الشريعة شراب الشمالي
فما يرتوي منه أهل التجريد جميعاً، لا يعطون منه ولا
جرعة لعباد الهوىٰ[1].

إذا لامس نسيم الألطاف الأزلية أرواح طلاب الحق العاشقين والمستيقظين الصادقين، ونقلهم إلىٰ رحاب مقام مثل هؤلاء الأطباء، وشرفهم بشرف: «**سكنة حرم العفاف الملكوتي أكرموني أنا الجالس علىٰ الطريق بشراب الفناء**»[2]، حينئذٍ يقتلون التعلق بالطبيعة في أرواحهم ويسلمون القلب لصاحبه لكي يودعه بدوره عند حضرة الحبيب، عندها يصيرون من الذين لا يعرفون سواه ولا يعشقون غيره، فيلهجون في السر والعلن بأنشودة:

حاشا لقلبي أن يفارقك يوماً أو أن يأنس بغيرك
فكيف سيكون حاله لو فارق لطفك وغادر حضرتك وهو
لا يحب غيرك[3]؟

أجل هؤلاء لا يكحلون عيونهم بغير تراب حضرة الحبيب وليس لهم ملجأ سواها، يقول الشيخ نجم الدين الرازي: «هذه هي العتبة التي أُريقت علىٰ تراب امتحانها دماء مائة ألف من الصديقين دون أن يقع فيهم السيل»[4].

يجب علىٰ المرء أن يخبر هؤلاء الأطباء بمرضه[5]، ويبقىٰ مثل

---

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.
(٢) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.
(٣) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.
(٤) مرصاد العباد: ٢٢٠.
(٥) عن علي عليه السلام قال: «مَن كتم الأطباء مرضه خان بدنه» معجم ألفاظ غرر الحكم: ٣١٥، ولا يخفىٰ أن إخفاء الأمراض القلبية عن أطباء الأرواح المخلصين خيانة للقلب والروح، وهذه خيانةُ أشد.

قطر الندىٰ في روضة الصبر اليعقوبي منتظراً لدوائِهِ الشافي، جالساً علىٰ عتبة بابه التي لم يبيعوها ولا بتيجان السلاطين وعروشهم: يقول شيخ الأحرار فريد الدين العطار [ما ترجمته النثرية]:

أخبرتُ الطبيبَ بخبرِ علتي، فلما عرفها كتب الجواب فوراً بدمِ القلب

أوصاني بالصبرِ بلسماً لعلتي وقال: ان كنت مستعداً فاجلس علىٰ تراب عتبته لينالَ جلوس قطر الندىٰ.

إذا كان الإنسان صادقاً في طلبه العلاج، قلقاً مضطرباً من أمراض قلبه الخبيثة، فعليه أن لا يترك الطبيب ولا يخنق صوت الاستمداد في فم النفس، بل يطالب العلاج باستمرار ويعرض حالَهُ ـ بأي ذريعة وسبب ـ علىٰ الطبيب، ويتمنىٰ رحمة السلامة ونعمة الصحة عسىٰ أن يأخذ الطبيب بيده ويعينه بكرمِهِ ويسقيه ـ بلطفه ـ شراب اليقظة؛ وما أجمل ما أنشده رئيس كتاب محفل أهل السر شيخ شيراز[1] بصدقٍ وافتقار [ما ترجمته النثرية]:

لن أكف عن الطلب حتىٰ تتحقق أمنيتي، فإما أن أصل الىٰ الحبيب وإما أن تفارق الروحُ بدني.

ولا ريب في أن المريض الذي يشعر حقاً بمرضه والصادق في طلبه للعلاج لا يكف عن طلب الشفاء من الطبيب، حتىٰ يُسقيه شراب الصحة والسلامة من صيدلية الشفاء، من صيدلية لطف وكرم الإنسان الكامل وهو طبيب النفوس. يُحكىٰ أن عيسىٰ عليه السلام مرَّ في طريقه برجلٍ منشغلٍ بالعبادة في معبد ومحراب جميل جداً يقعُ في روضة خضراء بالقرب من عين جارية فقال له: ما تفعل أيها الزاهد الموحد

(١) الشاعر العارف حافظ الشيرازي.

في هذه الروضة الزاهية؟! فأجاب: أقضي أيام بطاعةِ ربي ولي حاجة لم يقضها لي! سأله عيسىٰ عليه السلام عن حاجته فقال: أطلب منه ذرةً من حبه! فاستشفع له عيسىٰ عليه السلام عند الله تعالىٰ في قضاء حاجته وذهب.

وبعد مدة مرَّ عيسىٰ عليه السلام علىٰ تلك الروضة فلم يرَ من أثر للمعبد والمحراب ولا للعابد! فطلب من الله أن يعرفه بما جرىٰ وما آل إليه مصير العابد، فأمره الوحي بأن يصعد إلىٰ ذروة الجبل، فلما صعد وجد ذلك العابد وقد اصفر وجهه ونحف بدنه ويبست شفتاه وقد ظهر بهيئة الموتىٰ، فسلم عليه لكنه لم يسمع جواباً:

أخبرَ الحق تعالىٰ عيسىٰ بأن سر تحول الرجل من ذاك الحال الىٰ هذا، هو: الافتقار والحاجة(١)!

إن من غير الممكن معالجة هذه الأمراض المهلكة بتحمل مشاق الرياضات وصعاب المجاهدات دون رعاية الحق تعالىٰ وإعانة وتوجيهات الطبيب الروحاني وهو الشيخ الكامل، فإن الأمر: **«بحاجة إلىٰ إبرةٍ تستخرج الشوكة من القدم»**(٢).

إن العلاج هو الحب والفناء عن النفس الذي يكون عند نهاية قوس الصعود والاتصال بالحق تعالىٰ، وهذا يعني ارتفاع حجاب التعيّن وخلع لباس التشخص وإندكاك جبل «الإنية» واستهلاك الوجود الجزئي المقيد في الوجود الكلي المطلق، ولذلك يجب وضع خاتم الطبيب الكامل المُكمّل في وسط الروح:

ان خاتم الطاهرين علامة في وسط الروح، فلا تقدم القلب الا وهو مختومٌ بخاتم الطيبين(٣).

---

(١) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية.

(٢) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٣) ترجمة نثربة لشعر بالفارسية.

لكي تؤدي إشعاعات روحانيته [الطبيب الكامل] إلىٰ استحالة قلب السالك، فتعطيه المزاج الروحاني للولادة الثانية والسلامة والصحة الباطنية الكاملة، مثلما يؤدي اتصال قطرة الماء المالحة ببحر الماء العذب إلىٰ زوال ملوحتها وتحولها إلىٰ عذوبة.

واعلمْ ـ يا عزيز ديار الحبيب ـ أن دواء جميع الأمراض التي ذكرتها لك هو كأس واحدة من شراب الحب والفناء، وهذا الشراب لا يوجد إلا في صيدلية الأطباء الإلهيين. ويوجد في صيدلية الطبيب الإلهي جميع الأمراض والعلل[1]، الدواء الناجع في شفاء كل الأمراض، وهو يشفي السقيم بكلام تارةً وأخرىٰ بنظرة:

كُنْ فرحاً يا عشقنا الهنيء، ويا طبيب جميع أمراضنا

يا دواء نخوتنا وناموسنا، أنت أفلاطوننا وجالينوسنا

كل مَن مَزّق بالحب لباسه وتجرد فقد تطهر من كل حرصٍ وعيب بالكامل[2].

ولكن يجب الحذر من خطر الاشتباه في معرفة الطبيب، فهذا خطرٌ يهدد الإنسان، لذا يجب الاستعانة بالنصرة والهداية الإلهية لمعرفة الطبيب الروحاني الذي ملأ باطنه النور الإلهي، فإن تمييز الإلهيين عن الأدعياء هو من المراحل الصعبة جداً والخطيرة في السير والسلوك، وما

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تستشفين بغير القرآن فإنه من كل داءٍ شاف»، معجم ألفاظ غرر الحكم: ٥٥٠، إذن يوجد في كتاب الله الدواء الناجع لكل داء ومرض، ولكن المعرفة الكاملة بحقائق القرآن واستنباط أدويته الشافية لا تتيسر لغير عدل القرآن العارفين بحقائقه وهم العترة النبوية الطاهرة ـ صلوات الله عليهم ـ كما ينص علىٰ ذلك حديث الثقلين المتواتر والكثير من صحاح الأحاديث الشريفة، وهذا دليلٌ آخر علىٰ لزوم الرجوع إليهم وإلىٰ المتعلمين منهم بصدق للحصول علىٰ الأدوية القرآنية لأمراض القلوب.

(٢) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية.

أجمل ما أنشده مولانا جلال الدين المولوي في هذا الباب [وترجمته النثرية هي]:

هدف الرجال الإلهيين بعث النور والدفء في القلوب،
أما هدف الأراذل فهو الخداع بلا استحياء.

إذن، فالذي ينور قلبك بنور الإيمان، ويبعث الدفء في وجودك المتجمد بحرارة اليقين؛ هو الطبيب الروحاني الحقيقي، أما إذا لم تثمر صحبته وزيارتُهُ هذه الآثار فهو شيطان بظاهر إنسان، ملأ حب الدنيا والرذائل والمكر والخداع كل وجودِهِ(١).

إن ما يؤدي إلىٰ سقوط الكثيرين من طلاب سبيل الحق تعالىٰ في الضلالة والتسليم لهؤلاء الشيطانين المتسترين بظواهر إنسانية هو أنهم يخرجون من بئر جهلهم فيقعون في بئر أشد عمقاً هي بئر الأهواء(٢)، يقول مولانا المولوي [ما ترجمته النثرية]:

ما أكثر الأبالسة الذين يتسترون بوجوه آدمية، فلا ينبغي مصافحة كل يد
فالصياد يخدع الطير بصفير الطيور لكي يصطاده،
والرذل الدني يسرق كلام الأحرار الطيبين لكي يسحر به السقيم.

---

(١) وهذا من المعايير النافعة في تمييز حقيقة هذا الطبيب والمرشد في طريق السير والسلوك إلىٰ الله عز وجل، فعلىٰ المؤمن أن يتفكر في أحوال نفسه بعمق بين الحين والآخر عندما يصاحب مَنْ يدعي الإرشاد والهداية في هذا الطريق فإذا وجد أن هذه الصحبة قد أعانته علىٰ التطهر من الأمراض القلبية والصفات الذميمة، عرف أن صاحبه من عرفاء مدرسة الهداء إلىٰ الله وأتباع عدل القرآن ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ وإن لم يجد لذلك أثراً فليدقق في نفسه فإن كان التقصير منه عالج تقصيره وإلا أدرك أن مَن يصاحبه ليس هو الطبيب الحقيقي الموصل إلىٰ الله.

(٢) هذه الحقيقة تؤكد لزوم أن يلتزم المؤمن بدوام الاستعاذة الصادقة بالله عز وجل من شياطين الجن والإنس.

سبل تطهير محل تجلي نور اليقظة:

إن نور اليقظة يشرق بجلال وعظمة علىٰ القلب عندما يتطهر من الخبائث النفسانية والأرجاس الشيطانية التي جلبها الإنسان باختياره إليه؛ لذا يجب أولًا تطهير القلب الذي أصبح مجمعاً للرذائل الأخلاقية والهواجس النفسانية، من كل ما سوىٰ المحبة والمودة، والرقة والسخاء، والرأفة، والعاطفة السليمة، والوفاء والصفاء، والصدق والعشق، والإيمان واليقين، ونظائر هذه الحقائق المعنوية النازلة من السماء إلىٰ القلب؛ فكل ما يوجد في القلب من غير هذه الحقائق المعنوية النازلة من السماء إلىٰ القلب؛ فكل ما يوجد في القلب من غير هذه الحقائق الملكوتية والمواهب الجبروتية التي ذكرناها آنفاً، هو من الأمراض النفسانية الخبيثة ومن أرجاس الشيطان الملوثة، وهي لا تجلب للإنسان سوىٰ البهيمية والحيوانية.

إن الرذائل الأخلاقية تغلق بوجه الإنسان نوافذ النور وتسلب القلب نعمة السلامة وتصيبه ـ في المقابل ـ بالأمراض المهلكة، إنها تستبدل الإيمان بالكفر، واليقين بالشك، والمحبة بالقسوة، والمودة بالعداوة، والصفاء بالمكر والنفاق، والوفاء بنقض العهد، فتسوق الإنسان بذلك إلىٰ وادي المهالك، يقول رسول الله ﷺ: «**إذا طاب قلب المرء طاب جسده، وإذا خبث خبث الجسد**»[1].

من هنا نعرف أن صلاح الأعضاء والجوارح وفسادها رهينُ سلامة القلب أو مرضه، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إن منزلة القلب من الجسد بمنزلةِ الإمام من الناس الواجب الطاعة عليهم ألا ترىٰ أن جميع جوارح الجسد شُرُطٌ للقلب وتراجمة له مؤدية عنه، الأذنان والعينان**

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٥٠.

والأنف والفم واليدان والرجلان والفرج... فهذه كلها مؤدية عن القلب بالتحريك...»[1].

لذلك يجب الاجتهاد في تطهير القلب لكي لا تفسد عماله أي الأعضاء والجوارح حسبما ورد في حديث الإمام الصادق عليه السلام، وثمة طريقان لضمان سلامة القلب: الأول طريق وقايته من المرض، والثاني معالجته بعد الإصابة بالمرض أو بالأمراض، وهذا إما أن يكون تدريجياً أو دفعة واحدة.

الوقاية من الأمراض القلبية

يجب حفظ القلب قبل زوال صفائِهِ ونوارنيته بسبب الوقوع في المعاصي واستحواذ الشيطان عليه، لذلك ينبغي الاهتمام بشدةٍ في منع دخول أي ظلمة أو ضلال أو خبث إليه، فهذا أفضل سبل وقايته من الأمراض وأزكىٰ طرق تهذيب النفس. والنفس التي لم تتلوث بالذنوب ولم تتعرض لهجمات الشيطان وجنوده؛ تبقىٰ محافظةً علىٰ طهارتها ونقائها الذاتي وهي بلا شك أفضل من النفس التي تلوثت بالمعاصي ثم تابت، يقولُ عليٌ أمير المؤمنين عليه السلام: **«ترك الذنب أهون من طلب التوبة»**[2].

إذن، وعملًا بهذه الوصية العلوية ينبغي للذين لم يتلوثوا بالذنوب أن يجتهدوا في حفظ هذه الحالة ولا يسمحوا للذنوب بتلويث بواطنهم، ويحفظوا طهارة قلوبهم وصفاءها، فهذه الوقاية خيرٌ من طلب التوبة بعد الوقوع في الذنب كما يشير لذلك حديث مولىٰ الموالي علي المرتضى عليه السلام، فإن إخراج الشيطان وجنوده من القلب بعد السماح لهم بدخولهم أمر في غاية الصعوبة، يقول سيدنا علي أمير

---

(١) علل الشرائع للشيخ الصدوق: ١٠٩.

(٢) بحار الأنوار ٧٣: ٣٦٤.

المؤمنين عليه السلام: **«كم من شهوةٍ ساعة أورثت حزناً طويلاً»**(١)، وأي حزن أشدُ من أن يُحرم الإنسان من التوفيق للإنابة والتوبة(٢)؟! لذلك يجب الاهتمام بشدة في الوقاية والورع عن الذنوب وعدم السماح للنفس بأي ذنب قولًا أو فعلًا، وهذا الأمر جديرٌ بأن يجتهد فيه المرءُ بكل ما استطاع، يقولُ الإمام الصادق عليه السلام: **«اقصر نفسك عما يضرها من قبل أن تفارقك واسعَ في فكاكها كما تسعىٰ في طلب معيشتك»**(٣).

الغفلة تمنع من الوقاية

لقد صنفوا الغفلة ضمن أخطر أمراض القلب وأشدها تدميراً له، وأنا أتطرق للحديث عنها هنا إلىٰ جانب الحديث، الوقاية بملاحظة آثارها التخريبية في الحيلولة دون الوقاية، ومما لا شك فيه أن وقاية القلب من دخول أي وارد يلوث حرم القلب تحتاج إلىٰ يقظة، فإذا كان المستيقظ التائب محروماً من نعمة نور اليقظة(٤)، فإنه لن يستطيع وقاية قلبه من الأمراض، فلا يمكن فعل شيء للقلوب والأسماع والأبصار التي طبع عليها بالغفلة، يقول تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۞ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(٥).

---

(١) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب إن ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة.

(٢) من المفيد أن يتذكر المرء هنا أن التوبة تحتاج إلىٰ توفيق من الله عز وجل، فلا ينبغي أن تغره النفس الأمارة بالسوء بالتوبة وتوقعه بذلك في المعاصي لأن من المعلوم أن يحظىٰ بتوفيق التوبة بعد المعصية، والتفكير بذلك من السبل المؤثرة في الوقاية من الوقوع في المعاصي.

(٣) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب محاسبة العمل، ح ٨.

(٤) المقصود هنا هو نور اليقظة والهداية الخاصة الذي يجذب الله تعالىٰ بها العبد الصالح إليه، وهذا ما ينبغي أن يكون الطلب المحوري للمؤمن والسالك إلىٰ الله من ربه عز وجل في أدعيته ومناجاته ويكون هو مقصوده من تلاوته في صلاته لقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في إحدىٰ مراتبه.

(٥) النحل: ١٠٨ ـ ١٠٩.

هذه القلوب والأسماع والأبصار التي طبع الله عليها محرومة من إدراك الحقائق، والإنسان الذي طُبع علىٰ أعضائِهِ وجوارحه بختم الغفلة غافلٌ عن الله مشغولٌ بالدنيا، روي أن أمير المؤمنين عليه السلام دخل سوق البصرة فنظر إلىٰ الناس يبيعون ويشترون فبكىٰ بكاءً شديداً ثم قال: «**يا عبيد الدنيا وعمّال أهلها، إذا كنتم بالنهار تحلفون وبالليل في فراشكم تنامون وفي خلال ذلك عن الآخرة تغفلون فمتىٰ تُجهزون الزاد وتفكرون في المعاد**»[1]. والقرآن الكريم يصف الغافلين بأن الشيطان قد ملأ وجودهم بالكامل: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2].

ومع اتضاح سوء آثار الغفلة، يجب علىٰ الإنسان أن يسعّ جاهداً في اجتناب السقوط في مهاويها ويعتبر بما جرىٰ علىٰ الغافلين في الدين فقد حُرموا طمأنينة وسكينة السعادة والهداية، يخاطب القرآن الكريم أحد الغافلين بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[3]، وما أجمل قول سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما أكثر العبر وأقل الاعتبار**»[4].

التطهير الفوري الشامل

إذا ملأت الغفلة وجود الإنسان ولم يحفظ باطنه من التلوث، عندها تبدأ مرحلة التطهير الباطني، فيجب عليه أن يبادر بهمةٍ عالية إلىٰ كشف جميع ما في القلب من أمراضٍ تسعىٰ إلىٰ ترسيخ جذورها فيه، ثم إلىٰ تطهيره منها، فيجب عليه هنا اتخاذ قرار حازم وشن هجوم

---

(١) سفينة البحار ١: ٦٧٤ من الطبعة القديمة.
(٢) المجادلة: ١٩.
(٣) يونس: ٩٢.
(٤) معجم ألفاظ غرر الحكم ودرر الكلم: ٦٨٠.

شجاع يدحر به الشيطان وجنوده، ويمسك بيده بزمام النفس وبصورةٍ ثابتة.

وهذا التطهير الفوري الشامل للقلب وإخراج العدو منه يتحقق كنتيجة لانتفاضةٍ ذاتية تفجرها موعظةٍ نافذةٍ لواعظٍ أو أستاذ أخلاقي صالح أو إشارة مرشد رباني حقيقي، فتؤدي إلىٰ إيقاظ الغافل عن الأمراض الخبيثة المستشرية في باطنه والتي توشك أن تهلكه، وعندها يبادر إلىٰ القيام بما من شأنه تلافي آثار ما غرق فيه من جهل وضلالة وغفلة، فيسيطر الشعور بالندم والاعتذار والتوبة من المعاصي علىٰ وجوده، ويهيم علىٰ وجهه في صحراء التوبة مقيماً فيها بانتظار إشارة مالك القلب، يروىٰ أن محمد بن عيسىٰ ـ وكان من ندماء السلطان ـ خرج يوماً وهو يركبُ فرساً مزيناً وبيده صولجانٌ مرصعٌ بالجواهر وعليه ملابس فاخرة يحيط به غلمانه، فاجتمع الناس في طريق موكبه وهم ينظرون إليه ويتسائلون: مَن هو هذا الوجيه الذي يخرجُ في موكب بهذه الجلالة والعظمة، فسمعت قولهم امرأة عجوز كانت تسيرُ مستعينة بعصاها فأجابتهم: إنه رجلٌ مبتلئ، قد أبعده الله عن حضرته وشغله بهذه الزخارف التي لا تجديه نفعاً!

سمع محمد بن عيسىٰ قولها، فنزل من مركبه وقال: أُقرُ بصحةِ ما قالته هذه المرأة، لقد خدعتني الدنيا بالمال والجاه وأسرتني بأغلالها. ثم اعتزل منصبه كنديم للخليفة وانقطع عن الدنيا متفرغاً للعبادة في خلوةٍ وتيقن أن العزة الدنيوية هي عين الذلة.

لقد نفذ كلام تلك المرأة العجوز ذات القلب الحي إلىٰ أعماق روح محمد بن عيسىٰ ففجرت فيه هذه الثورة الداخلية التي أدت به إلىٰ اتخاذ قراره الحازم الفاعل الذي جعله يعرض فوراً عن الخليفة وعن العيش في بلاط الخلافة، الأمر الذي يدل علىٰ أن نار تلك الموعظة قد

أحرقت جميع ما فيه من تعلقات بالدنيا، وجعلته يستيقظ ويقطع ارتباط قلبه بخط حياته الدنيَويْة السابقة ويتوجه إلىٰ السلوك المعنوي.

إن مثل هذه الجذبة التي تجعل الإنسان يقطع قلبه عن الدنيا ويودعه إلىٰ حبيب القلب ومالكه، قادرة علىٰ جعله يقدم منصب الخلافة نفسه قرباناً للحبيب فضلًا عن منصب نديم الخليفة! يروىٰ أن إبراهيم بن أدهم كان من عائلة ملوك بلخ، وقد حكمها هو أيضاً مدة، وذات ليلة اهتز سقف غرفته وهو نائمٌ علىٰ سريره فاستيقظ، وأدرك أن شخصاً يسير علىٰ سطح قصره فصاح إبراهيم: مَن أنت؟ فسمع مَن يقولُ له: لستُ غريباً، لقد أضعتُ جملي وأنا أبحثُ عنه علىٰ سطح قصرك! قال إبراهيم: أيها الجاهل كيف تطلب الجمل فوق سطح قصري؟! فأجابه: وأنت أيها الغافل، كيف تطلب الله وأنت تنام بهذه الملابس الفاخرة علىٰ هذا العرش الذهبي؟!

نفذت هذه الكلمات إلىٰ أعماق روح إبراهيم وهزتها بقوة، فغض النظر في اليوم التالي عن عرش بلخ وخلع زي السلطنة الذهبي، وتحرك بزي الرعاة متوجهاً إلىٰ مكة ماشياً[1] وكان يصلي في كل منزل ألف ركعة ولذلك استغرق سفره (١٤) عاماً.

ويحدث أحياناً أنّ غافلًا سلم جسده للمعاصي وقلبه للشيطان وزمام إيمانه للنفس الأمارة بالسوء قد تحول فجأةً بانتفاضة داخلية أوجدها فيه المعنىٰ العرفاني لمقولةِ: «ما أطيب سماع صوت القرآن من فمك أيها الحبيب»، فأعرض عن المعاصي وتوجه نحو السير والسلوك فأصبح من السابقين في محفل الحقيقة المرتوين بشراب المعرفة

---

(١) الذهاب للحج ماشياً من سنن أئمة أهل البيت عليهم السلام وقد روي أن الإمام المجتبىٰ قد حج (٢٥) حجة ماشياً والنجائب تقادُ بين يديه، وهو من علامات التواضع لله عز وجل، وله أثرٌ قوي في تذليل النفس لربها الكريم.

الطهور، يُروىٰ أن الفضيل بن عياض كان ولسنين طويلة يحترف السرقة وقطع الطريق علىٰ القوافل ويسلبها فيجعل أغنيائها فقراء وحفاة بل وكان يسفك الدماء ظلماً، وذات يومٍ وجد بين بضائع قافلة سلبها لوحاً عليه أسماء الله تعالىٰ، فأمعن النظر فيه ثم خطر في ذهنه خاطر جعله يعاتب نفسه قائلًا: ويح نفسي، بأي جرأة وبأي قوة أسلبُ أناساً احتموا بأسماء الله؟! وإثر ذلك نزلت به حالة جعلته يتفجر بالصراخ، مزق ثيابه ونتف شعره وأخذ يضرب برأسه علىٰ الصخور حتىٰ أدمت الجراحُ بدنه، وقد اصفر وجهه وجفّ فمه وهو غارق بالبكاء والعويل، وفي وسط هذه الحالة فتح الله له باباً إلىٰ حضرته القدسية وختم عاقبته بالحسنىٰ وجعله رفيقاً للخواص والمقربين»[١].

ويحدث أحياناً أن تغيّر القلب حادثةٌ صغيرة يكون لها ما يشبه أثر الصاعقة فيه فتحرره من عبودية الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، ويزيل نور اليقظة الظلمات التي نشرتها الذنوب فيه فيجد طريقه إلىٰ ديار الحبيب، بشر الحافي ـ الذي تزين مواعظنا اليوم كلماته وذكريات سيرته ـ كان قبل يقظته ممن يُشار إليه بالبنان عند ذكر الفسقِ والفجور فقد كان منشغلًا بذلك ليل نهار، وكانت أصوات الرقص والغناء واللهو تسمع من بيته باستمرار، لكنه تاب فيما بعد من كل ذلك وانقلب حاله وسلك مسالك الزهاد والعباد؛ يروىٰ أنه: «خرجت جاريةٌ لبشر لإلقاء القمامة، وأثناء ذلك مرَّ الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام فسمع أصوات الغناء والرقص تأتي من دار بشر، فسأل الجارية عن صاحب هذه الدار هل هو حرٌ أم عبد؟! أجابت: بل هو حرٌ يا سيدي، فقال عليه السلام: «**صدقتِ لو كان عبداً لخاف من مولاه**».

عادت الجارية إلىٰ داخل المنزل فسألها بشر ـ وهو علىٰ مائدة

---

(١) كتاب (معارف سلطان ولد) الفارسية: ١٣٥.

الخمر ـ عن سبب تأخرها فأخبرته بما جرىٰ وقول الإمام عليه السلام، فنفذت موعظة الإمام القصيرة إلى أعماقِ قلبه ونورته وأيقظته من غفلته فأعرض عما كان فيه وانطلق يعدو حافياً خلفه حتىٰ وصل إليه عليه السلام وهوىٰ علىٰ يديه وقدميه يقبلهما وهو يقول: إنني أعتذرُ إلىٰ الله وإليك يا سيدي، أنا عبدٌ لله لكنني نسيتُ عبوديتي له ولذلك انغمستُ في معصيته، فهل لي من توبة؟ أجابه الإمام بأنّ الله يقبل توبته، فالتزم بالمشي حافياً إلىٰ نهاية عمره شكراً لله علىٰ نعمة قبول توبته»[1].

(١) منتهىٰ الآمال للشيخ القمي، بالفارسية ٢: ١٢٦.

التطهير التدريجي

إذا كان المذنب فاقداً للهمة العالية التي تُمكنه من التحرر الفوري والكامل من أسر عبودية النفس الأمارة بالسوء وإخراج الشيطان وجنوده من قلبه، فعليه أن يتوجه إثر يقظته إلىٰ معرفة الذنوب ودراستها، لأن لكل ذنب مرضاً يصيب به القلب، وهذه الأمراض هي التي تسلبُ القلبَ مكانته. ثم عليه أن يتعرف علىٰ أساليب التطهر من كل ذنب والعمل بها، فإذا انتصر في مكافحة ذنبٍ معين فعليه الانتقال لمكافحة الذنب الآخر وهكذا يواصل هذا الجهاد الأكبر حتىٰ يهذب نفسه بصورةٍ كاملةٍ ويتحقق له النصر النهائي المتمثل في السيطرة علىٰ الأهواء والرغبات النفسانية.

وحذار ـ أيها المستيقظ ـ من أن تقع في خدع المعاصي ومكائدها وتتصور أنها ـ أو إحداها ـ قد ماتت، فتتغفل عنها، كلا، فإن المعصية لا تموت[1]، وغاية الأمر هي أنك تكون قد سلبتها وسيلة الحياة فتسقط كالميتةِ. يقول مولانا جلال الدين محمد الخراساني [ما ترجمته النثرية]:

---

(١) المقصود هو الدافع للمعصية، وهي رغبات النفس والأهواء التي تأمر بالسوء.

رغباتُ نفسك ثعابين لا تموت، انها تضعف عن الحركة
حسرةً على فقدانها وسيلة الحياة

فإذا وجدت الوسيلة صارت فرعوناً يذهب الجميع بأمره
الى البحر

أما الذي يقلع صرحها الفرعوني، فهو الذي طوى
طريق موسى وهارون مائة مرة

هي ديدانٌ جعلها الفقر ثعابين، مثلما تصير البعوضة
صقراً عندما تحصل على المال والجاه

إذا سجنت هذه الثعابين حية في برد الفراق ثم لم
تقتلها بشمسِ العراق

فإنها ستجعلك لقمتها الأولى عندما تنطلق من هذا
السجن

فاقتلها لكي تأمن من أن تقتلك ولا ترحمها فهي
ليست أهلاً لصلة الرحم

اذا وصلت الحرارة الى الشهوات أحيتها وجعلتها تنطلق

فجاهدها واقتلها بقتال الأبطال لكي يجزيك الله على
ذلك بالقرب والوصال

ولكن لن يفلح في ذلك الوضيعُ فالقادر على قتل
الثعابين هو صاحب الروح الموسوية.

وما أحسن وصف أبو سعيد أبو الخير لها حيث قال: «إن الخوف كل الخوفِ من النفس، إذا لم تقتلها قتلتك وإذا لم تغلبها غلبتك»؛ لذلك، لا تغفل ـ أيها الطالب طريق السلوك ـ عن المعاصي المتروكة

المتظاهرة بالموت، والتي لم تقطع جذورها بالكامل؛ ولا تتصور نفسك راهباً وزاهداً وعابداً في حين أن المعاصي تتربصُ بك الدوائر وهي في أوكارها تتحين الفرص لكي تهجم عليك وتغلبك علىٰ أمرك[1]؛ لا تخدع نفسك بأنك قد غلبت عدوك وأهلكت جنوده وانقضىٰ الأمر.

يروىٰ: «أن عبد الواحد بن زيد ـ العارف الواصل والشيخ الكامل الذي كانت له حوزة من المريدين الكاملين ـ مرَّ في أرض الصين بصومعةٍ لعابدٍ فيها، يقول: فناديته: أيها الراهب، فلم يجبني العابد، فكررت النداءَ مرة ثانية دون جواب أيضاً، وفي المرة الثالثة، أخرجَ الرجل رأسه وقال: ما أنا براهب يا هذا، إن الراهب هو الذي يخشىٰ الله ويعظم كبرياءَهُ، ويصبر علىٰ بلائِهِ ويرضىٰ بقضائِهِ، يحمده علىٰ آلائِهِ ويشكره علىٰ نعمائِهِ، يتواضع لجلاله بخشوعٍ ويعفر وجهه بالتراب في محضر عزتِهِ، يسلم لقدرته ويخضع من خشيته، يفكر في حسابه ويتعقل عقابه، يصومُ نهاره ويقومُ ليلَهُ، لم ينس جهنم الآخرة ولم يغفل عن جباريّة ربه، فمَن تحلىٰ بهذه الصفات فهو الراهب. أما أنا فلست إلا كلباً مسعوراً حبست نفسي في هذه الصومعة لكي لا تعضَّ أحداً من الناس فتؤذيه».

أجل، لقد قال هذا العابد ما قال رغم أنه كان قد تحرر من أهواء النفس وشهواتها، وهجر حب النفس ووصل إلىٰ حب الله، وطهر النفس من كل ما سوىٰ الله جل وعلا وحررها من سيطرة الشيطان، لكنه رغم كل ذلك لم يتفوه بكلام يعبر عن أنه في أمان من شرور العدو، والسر في ذلك هو أنه قد تيقّن أن أفاعي النفس لم تمت بل هي ضعيفة بسبب فقدانها وسيلة التحرك، ولذلك ينبغي دائماً مراقبة

---

(١) تأمل في قول أمير المؤمنين عليه السلام: «نفسك عدو محارب وضدٌ مواثب إن غفلت عنها قتلتك»، معجم ألفاظ غرر الحكم: ٨٢٢، غرر الحكم ٢: ١٧٩.

النفس لكي لا تستعيد قوتها فتطغىٰ وتتمرد علىٰ الطاعة، ولا يمكننا أن نكفّ عن هذه المراقبة والجهاد الأكبر إلا إذا بلغنا مقاماً نرىٰ القلب ـ كما طلبناه ـ ملازماً للحق تعالىٰ.

العقبات الصادة عن تطهير القلب

إن أزكياء طريق الحقيقة الذين تصدروا محفل المعرفة وارتووا من شراب الفناء بكأس ساقي حفل الوصال وأقاموا صلاة الحاجة علىٰ سجادة البقاء؛ هؤلاء اجتهدوا في كل حين في محو «الأنا» وأزالوا العقبات عن طريقهم، وسلكوا طريق العشق بعشقٍ حتىٰ وصلوا إلىٰ مناهم واحتضنوا عروس الوصال في روضة الأنس الرباني. هؤلاء الذين وصلوا إلىٰ ديار طير المُنىٰ قد بينوا للمستيقظين أو المتنورين بنور اليقظة وهم سالكوا هذا الطريق في الغد العقبات المانعة عن تجلي نور الله، وهنا نذكر باختصار هذه العقبات:

الغفلة عن النفس[1]: إن أهم العقبات ـ والتي قلّ الحديث عنها ـ هي عقبة عدم الاهتمام بالأوضاع الباطنية العامة للإنسان، بمعنىٰ عدم معرفته ومراقبته لما يدخل قلبه وما يخرج منه وغفلته عن الآثار التي تتركها هذه الواردات علىٰ القلب، وبالتالي الغفلة عن الحقيقة التي يبينها عليٌ أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «**الشرُ كامنٌ في طبيعة كلّ أحدٍ**»[2]، فإذا غلبت الأهواء النفسانية والجنود الشيطانية علىٰ القلب ـ وهو سيناءُ تجليات الأنوار الإلهية، صار حاله هو الحال الذي يشير إليه عليُ المرتضىٰ عليه السلام بقوله: «**أهلك شيءٍ الهوىٰ**»[3].

---

(١) عن علي عليه السلام قال: «إن كنتم للنجاة طالبين فارفضوا الغفلة...»، معجم ألفاظ غرر الحكم: ١٣٢١، ح ٧٧٣.

(٢) معجم ألفاظ غرر الحكم ودرر الكلم: ١٢٧١، ح ١٣٤.

(٣) المصدر السابق: ١٢٣٥.

وخلاصة الكلام هي أن ما حثوا عليه فيما يرتبط بالفتن النفسانية هو مراقبة النفس والسيطرة عليها، فالذين يلتزمون بذلك هم القادرون علىٰ ردعها عن المعاصي، يقولُ عليٌّ أمير المؤمنين عليه السلام: **«غالبوا أنفسكم علىٰ ترك المعاصي تسهل عليكم مقادتها إلىٰ الطاعات»**[1]، من هنا فإن غفلة الإنسان عن النفس يجعله ضعيفاً في قبالها، وإذا وجدته ضعيفاً استقوت عليه وأصرت علىٰ تلبية أهوائها وسيطرت علىٰ القلب والعكس صحيح أيضاً، يقول علي أمير المؤمنين عليه السلام: **«إذا صعبت عليك نفسك فأصعب لها تذل لك، وخادع نفسك عن نفسك تنقدُ لك»**[2].

ضعف الإرادة: إن ضعف الإرادة أشد عقبة في طريق السالك، وهي تؤدي إلىٰ إخفاء أنوار اليقظة في موارد متعددة خلف شهوات النفس وخواطر الشيطان، وإلىٰ منع الإنسان عن اتخاذ القرار الحازم السليم، وتجعله يخترع الأعذار الواهية لعدم الاستجابة لعوامل الإيقاظ من نومة الغفلة، أو للدعوات الإلهية التي تمهد ليقظة الإنسان، وتوقعه في التسويف في التوبة والإصرار علىٰ المعصية الذي يبعده بالتالي عن ساحة التوحيد. فإن الأعذار الواهية والتسويف في التوبة هما علامة ضعف الإرادة، يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«تأخير التوبة اغترار، وطول التسويف حيرة، والاعتلال علىٰ الله هلكة، والإصرار علىٰ الذنب أمن لمكر الله، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون»**[3].

فقدان المحاسبة علىٰ الأعمال: يمكن للإنسان أن يجعل جميع ما يقوم به في يومه منصباً في مسار سيره الصعودي إلىٰ الله تعالىٰ

---

(١) المصدر السابق: ١٣٥٥، ح ١٢٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ١١٢٨.

(٣) بحار الأنوار ٧٣: ٣٦٥.

وذلك بالالتزام بالمحاسبة علىٰ جميع ما يصدر عنه في يومه من أفعالٍ وأقوال، فالمحاسبة من العوامل التي تحمي الإنسان من الضرر والخسران، ومعلومٌ أن التاجر الذي لا يحسب ماله وما عليه من معاملاته التجارية يومياً وأسبوعياً وشهرياً وبالتالي سنوياً، ولا يدري بما يجري في محل تجارته، فإن ما يتخذ من قرارات يومية أو أسبوعية أو شهرية أو سنوية وما يقوم به لن ينفعه وتكون نتيجة عمله التجاري الخسارة؛ وهكذا حال الإنسان لو كان عمله علىٰ هذا النحو، فسيكون عاقبة سعيه في حياته الدنيا الخسران، وبالعكس، فكلما كانت محاسبة الإنسان لنفسه أدق كلما قلَّ تضرره منها ولم تُثقل ظهره الذنوب والأوزار، يقول علي أمير المؤمنين عليه السلام: **«مَن وَبَّخ نفسه علىٰ العيوب ارتدعت عن كثير الذنوب»**[1]، أما الذي لم يلتزم بهذه الدقة في محاسبة النفس في مختلف أعماله فسلوكه سلوك الحمقىٰ، يقول رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ: **«ألا أنبئكم بأكيس الكيسين وأحمق الحمقاء؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: أكيس الكيسين مَن حاسبَ نفسه وعمل لما بعد الموت، وأحمق الحمقىٰ من اتبع نفسه هواه وتمنّىٰ علىٰ الله الأماني»**[2].

وعلىٰ أي حالٍ يجب علىٰ المستيقظ أو التائب أن يحاسب نفسه كل يوم ويدقق فيما ارتكبته من خيرٍ أو شرٍ ويعمل بوصية الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام، حيث يقول: **«فإن عمل حسناً استزاد الله وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه»**[3].

عبودية النفس: وهذا هو البلاء المدمر للروح فمَن تحرر منه

(١) معجم ألفاظ غرر الحكم: ١١٢٥.
(٢) بحار الأنوار ٧٠: ٦٩.
(٣) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب محاسبة العمل، ح ٢.

واجتنب اتباع أهواء النفس وشهواتها ـ التي تدمر القلب بظلماتها ـ وصل إلىٰ الكمال، أما الذي يتبع الهوىٰ فقد ضل عن سبيل الله[1]، يروىٰ أن منصور الحلاج قال لولده: «أيها الطيب! شاغل نفسك وسخرها للعمل الصالح وإلا عزلتك وشغلتك بمئات الأعمال السيئة، إذا شبعت أطلقت لسانها بالغيبة ولن تستطيع حينئذٍ أن تسكتها مهما وبختها، إنها مثل الكلب، وهي ـ مثل الكلب ـ تدعو القلب دوماً للتسكع في الطرقات وتجره إلىٰ هنا وهناك استجابةً لشهواتها فلا تترك للإنسان فرصةً للتفرغ والخلوة والتفكير بطلب الحبيب الحقيقي، ولذلك قال العارف الشهير أبو سليمان الداراني: «أفضل الأعمال مخالفة هوىٰ النفس».

ولكن مما لا شك فيه أن مخالفة النفس تتطلب شجاعة فائقة، يقول عليٌ أمير المؤمنين عليه السلام: «**أشجع الناس مَن غلب هواه**»[2]، وهذه الشجاعة هي ثمرة قرار حازم شجاع يسحق هوىٰ النفس المتجبرة ويحرر الإنسانَ من أسرها ويفتح له آفاق الاتصال بعالم التوحيد، يروىٰ أن شاباً استيقظ من نومة الغفلة وتاب مما سلف منه، فاستولىٰ عليه شوق لقاء الله، ترك دياره ونور اليقظة يؤجج نار الطلب في قلبه وهو يسير باحثاً عمن يبين له الطريق، أخذ يسأل كل مَن يجده ـ من أصحاب القلوب الحية ـ عما أهمه لعله يجد عنده السكينة حتىٰ وصل إلىٰ العارف المرتوي من كأس الشراب السبحاني الشيخ أبي الحسن الخرقاني، فسأله: كم هو مقدار الطريق إلىٰ الله؟ أجاب الشيخ خطوة واحدة لا أكثر! تعجب الشاب من هذا الجواب وكرر القول مستغرباً: خطوة واحدة فقط؟! قال الشيخ: نعم يا ولدي، خطوةٌ واحدةٌ، إذا

---

(١) لاحظ قوله تعالىٰ مخاطباً نبيه داود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (سورة ص: ٢٦).

(٢) بحار الأنوار ٧٠: ٧٦.

خرجت من بيت نفسك بخطوة واحدة كانت الخطوة الثانية في حضرة القرب الإلهي!

وما أحسن ما قاله العارف الزاهد الشيخ محمد الطبسي حيث يقول: «يجب عليك أن تكبح جموح نفسك في كل ما تهواه وأن تكون مسيطراً مقتدراً في تسييرها، وأن تعمل خلاف هواها وتعرض عن لذاتها. يجب عليك أن تلتزم عرىٰ العدل والإنصاف في سلوك طريق الدني فتنهىٰ نفسك بصدقٍ وإخلاص عن عيوبها، وتتنزه عن عيوب الآخرين، وتتوجه باستمرار إلىٰ الخالق ـ جل وعلا ـ، وتتهم نفسكَ بين الخلق، وتجند كل وجودك للعمل بالشريعة متورعاً عن الرياء والسمعة، ويكون نظرك متوجهاً في السراء والضراء إلىٰ الخالق لا إلىٰ الخلق»[1].

حبّ الدنيا: وهو من العقبات الخطيرة جداً في الصدِّ عن تطهير القلب، فحبّ الدنيا والتعلق بها ـ بمختلف أشكال التعلق ـ علة الكثير من الأمراض الخبيثة المدمرة، والقلب الذي يأنس بالزخارف الدنيوية عاجزٌ عن السير والصعود إلىٰ عالم القدس ورحاب تجلي الأنوار الإلهية؛ والتعلق القلبي بزينة الحياة الدنيا يمهد للوقوع في المعاصي ويعرض باطن الإنسان للتلوث بالخبائث، يقول رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ: «**إن أول ما عُصيَّ الله عز وجل به ستٌ: حب الدنيا وحب الرئاسة وحب الطعام وحب الراحة وحب النساء**»[2].

ولا يخفىٰ أن المذموم من حب هذه الأمور هو ما يبعد منها عن الله تعالىٰ، أما ما يؤدي إلىٰ الرقي المعنوي ـ وهذا ما يُشاهد في بعض الحالات ـ فهو من الطيبات وليس من الخبائث فهو ممدوحٌ طبعاً. وبصورةٍ عامة

(١) كتاب (آثار درويش محمد طبسي نعمة اللهي) بالفارسية: ١٠.
(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب في أصول الكفر وأركان، ح ٣.

يمكن القول أن الممدوح هو كل ما يقرب الإنسانَ من الله عز وجل والمذموم هو كل ما يبعده عن رحاب التوحيد[1]، وهذا هو أساس كل معصية، يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«حب الدنيا رأس كل خطيئة»**[2].

إن الغفلة هي التي تسوق الإنسان إلىٰ التعلق بالدنيا، فهي أخطر شيءٍ يهدد مستقبله، فهي تجعله يتوهم أن كل ما عنده خالدٌ له، وتصده عن الاعتبار بموت الغابرين واضطرارهم إلىٰ ترك كل ما جمعوه، يحكىٰ أن بهلول مرَّ علىٰ مقبرةٍ وهو يضرب بعصاه القبور، فسألوه عن سر قيامه بذلك، أجاب: إن الراقدين في هذه القبور كذابون جميعاً، كانوا يزعمون أن ما تركوه من رياض وأموال وأملاك ومزارع هي ملكٌ لهم لكنهم تركوها ورحلوا دون أن يأخذوا منها شيئاً، فأي كذب أوضح من هذا؟

ويلٌ وألفُ ويل لمن أبعده التعلق بهذه الزخارف الدنيوية عن الله وأنساه ذكره وهو المعبود والحبيب الحق، وويل لمن لم يستيقظ من هذه الغفلة والجهل وبقي غارقاً فيها حتى استحوذت هذه التعلقات علىٰ كل وجوده.

إعلمْ، أيها المستيقظ التائب والطالب السالك، أن جميع أشغال الإنشغال بالدنيا وحبها صدأٌ يكدر مرأة القلب، فإن كان مقداره قليلًا انعكست فيها صورٌ ناقصة هي أفضل من عدم الانعكاس بالكامل، أما إذا ازداد الصدأُ وغطىٰ مرآة القلب بالكامل، فلن يرىٰ صاحب هذا القلب فيها شيئاً بالمرة لا قليلًا ولا كثيراً، ولا خيالًا ولا حقيقةً، فهو مفلسٌ بالكامل لا يحصل علىٰ أي ثمرةٍ من قلبه إلا إذا اجتهد في إزالة

---

(١) المقصود هنا ما يخرج عن دائرة الحلال والحرام، لأن من الواضح أن الحرام يبعد عن الله، والحلال بمعنىٰ الفرائضَ والأوامر يُقرّب من الله.

(٢) بحار الأنوار ٧٣: ٩٤.

الصدأ عنه بالرياضات والمجاهدات ونار العشق القدسي، وعندها يرىٰ في مرآة قلبه تجليات الحق تبارك وتعالىٰ وصنعه عز وجل، فهو لن يعرف بأن مرآة القلب قد نقت من كدر الصدأ إلا عندما يعرف بها نفسه، فإذا عرف نفسه وجد الله معها فلا يراه ـ عز وجل ـ منفصلاً عنها أبداً فلقد قالوا: «**مَن عرف نفسه فقد عرف ربه**»[1].

إذن يجب علىٰ العبد أن يتطهر ويتخلىٰ عن كل ما يشده بنفسه، ويغسل قلبه من خبائث التعلق بالدنيا لكي يصل إلىٰ الحياة الأبدية الحقة ويرتدي خلعة المجردين اللاهوتيين، يُحكىٰ أن مجنوناً كان يبكي بحرقة، وهو عريانٌ طالباً من الله ثوباً، فنودي: سنعطيك ثوباً هو كفنك، فاضطر المجنون إلىٰ القول جواباً علىٰ هذا النداء: إنني أعرفك جيداً؛ أنت المربي عبدك، لا تعطيه الكفن إلا بعد أن يبادر هو بنفسه إلىٰ الموت!».

وهذا النوعُ من الموت عند أهل السلوك ليس الموت الإجباري الذي يجعل مَن يحلُ به جسداً بلا روح يودع في القبر، بل هو الموت الاختياري الذي ينتقل الإنسان فيه إلىٰ النور فيصير من عالم النور، وهو الموت الذي يشير إليه سيدُ الكائنات ـ صلوات الله عليه ـ بقوله: «**موتوا قبل أن تموتوا**»[2]، واستجابة لهذا الأمر النبوي بادر طائفة إلىٰ الموت الاختياري لكي لا يلاقوا مشقة الموت الإجباري:

مُت قبل موتك أيها السيد، لكي لا تصيبك مشقة نزع الروح[3].

وعلىٰ أي حال، فما لم يكفر المستيقظ التائب أو الطالب السالك بنفسه فلن يجد طريقه إلىٰ رحاب التوحيد، يقول الشيخ أبو سعيد أبو

---

(١) عوالي اللآلي ٤: ١٠٢، ح ١٤٩.

(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٥٩.

(٣) ترجمة نثرية لبيت بالفارسية.

الخير في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾[1]: «ما لم تكفر بنفسك، فلن تؤمن بالله، لأن طاغوت كل إنسانٍ نفسه».

عبودية البطن: تعتبر كثرة الأكل من العوامل المثبطة عن اتخاذ القرار الحازم لتطهير القلب، فإن الإنسان إذا ملأ بطنَهُ وسقط في عبوديتها لم يعد يرىٰ في الجوع من لذةٍ ولازمه الحرصُ علىٰ إشباع بطنه بألذِّ الأطعمة، وصار يقضي معظم أوقاتها في إعداد ما تطلبه بطنه، الأمر الذي يجعله بطبيعة الحال معرضاً عن التخطيط الجاد لحياته المعنوية فضلًا عن التوجه إلىٰ أماكنٍ خالية يعتزل فيها عن كل شيء في عزلةٍ بناءةٍ للروح، والسبب هو أنه أَنِسَ بمظاهر الدنيا وتعلق بها ومن ضمنها ما ذاقه من مأكولاتها الجيدة الطيبة التي يصير عاجزاً أن يبقيَّ بطنَهُ خاليةً منها، ولذلك فهو لا يتحرك إلا من أجل بطنه ولا يلتذ إلا بما فيه تلبية لشهواتها، وهو وإنْ عرف أن للجوع آثاراً جيدة لكنه لم يذق لذة الجوع وحلاوته التي تعطر الروح وتطيبها وتجعل صاحبها من المخفين. في حين أن كثرة الأكل تُثْقِلَهُ وتميتُ فيه الرغبة في الحركة والسعي والنشاط المفيد وتجعله ميّالًا إلىٰ الدعة.

ومثل هذا الإنسان محرومٌ من لذة طيب الأطعمة المعنوية، لا يستشعر حلاوة مناجاة الله جل جلاله تسيطر عليه حالةٌ من الغفلة وفي ذلك ضررٌ عظيمٌ يشير إليه الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ بقولِهِ: **«وليس شيءٌ أضر لقلب المؤمن من كثرة الأكل»**[2] فهي تؤدي إلىٰ عبودية البطن، وإلىٰ إصابة الإنسان بأضرارٍ يبينها عَلَيْهِ السَّلَامُ في تتمةِ الحديث المتقدم حيث يقول: **«وهي مورثةٌ شيئين: قسوة القلب وهيجان الشهوة»**[3]، ولا ريب

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) (٣) مستدرك الوسائل ٣: ٨٠، أبواب آداب المائدة من كتاب الأطعمة والأشربة، باب كراهة كثرة الأكل.

أن هذا القلب القاسي الخاضع للشهوات ليس محلًا مناسباً لتجلي الأنوار الإلهية، بل هو عاملٌ لإطفاء نور الله، يقول خاتم الأنبياء ﷺ: **«لا تشبعوا فيطفئ نور المعرفة من قلوبكم»**[1]، وإذا انطفأ نور المعرفة في القلب سلب الشوق للعبادة من الإنسان وجعله يكسل عنها، يقول سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام: **«إياكم والبطنة فإنها مقساة للقلب مكسلة عن الصلاة مفسدة للجسد»**[2]:

لا تُربِّ الجسد فهو سيقدم قرباناً، وربِّ القلبَ فهو الذي يعرج إلى العُلى

قلل ما تعطيه لهذا الجسد الميت من دسومة وحلاوة، فالسمنة تفضح صاحبها

ولكن أذق الروح دسومة الحكمة وحلاوتها لكي تستقوي بها عندما تذهب إلى هناك

فالحكمةُ خلعة الملك صلاح الدين، وهي نصيب من يسير وحيداً مثل الشمس[3].

كثرة الكلام: ومن العقبات الأخرى الصادة عن تطهير القلب تضييع الوقت في اللغو وغير النافع من الكلام، والكلام إذا كان بالحرام مثل الغيبة والبهتان والكذب والنميمة والإهانات، وما يؤدي إلى الفتنة والفساد، أو كشف أسرار الناس، فهو سبب لقسوة القلب والابتعاد عن رحاب التوحيد، يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«كان المسيحُ عليه السلام**

---

(١) المصدر السابق: ٨١ ـ ٨٢.

(٢) معجم ألفاظ غرر الحكم ودرر الكلم: ١٢٩٠، ح ٤٠١.

(٣) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

يقول: لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله، فإن الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسيةٌ قلوبهم ولكن لا يعلمون»[١].

إن الذي يستهلك قوة النطق التي تفضل الله بها عليه في اللغو من الكلام، يكون بذلك قد ضيّعَ هذه النعمة الإلهية التي تفضل الله بها علىٰ الإنسان لتلبية احتياجاته، بل وجلب علىٰ نفسه قسوة القلب وظلمة الباطن، يقولُ سيد الكائنات ـ صلوات الله عليه ـ: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسو القلب، إن أبعد الناس من الله القلب القاسي**»[٢].

كثرة النوم: وهي لا تقل في ضررها عن كثرة الأكل وكثرة الكلام. والإنسان يحتاج طبعاً إلى مقدار من النوم كل يوم يستريحُ فيه بدنُهُ ويستعيد قوته لمواصلة نشاطه، ولكن إذا زاد نومُهُ عن مقدار الحاجة أدىٰ إلىٰ ضعف البدن وانحلاله وبرودته كما يقول علماء الطب، وبالتالي أدىٰ إلىٰ إصابته بأمراضٍ بدنية عدة، كما أنه يسلب الإنسان النشاط في العبادات والطاعات والإقبال القلبي عليها وشوقه إليها، وبالتالي فهو يضر بدين الإنسان ودنياه، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**كثرة النوم مذهبة للدين والدنيا**»[٣].

تتحدثُ عبدة بنت أبي شوال عن أيام ملازمتها لشهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية، فتقول: «كانت رابعةٌ تقضي كل الليل في الصلاة والعبادة حتىٰ الصباح، ثم تنامُ نومةً خفيفة وهي في محل صلاتها حتىٰ

---

(١) وسائل الشيعة ١٢: ١٩٦، كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، باب كراهة كثرة الكلام بغير ذكر الله، ح ٢.
(٢) المصدر السابق ١٢: ١٩٤، باب وجوب حفظ اللسان عما لا يجوز من الكلام، ح ١٩.
(٣) سفينة البحار ٢: ٦٢٤.

تشرق الشمس، فإذا أشرقت الشمس نهضت من مرقدها وكنت أسمعها تقول بألم وحرقةٍ: ما أكثر نومك يا نفس! متىٰ تستيقظين، إنكِ عن قريب راقدّة في نومة لا استيقاظ بعدها إلىٰ يوم يُنفخ في الصور. تقول عبدة: وكانت هذه سنتها إلىٰ آخر عمرها»[١].

يقول العارف الشهير سلطان ولد نجل مولانا المولوي: «كلُ من كان أسير النوم والأكل فهو غريب عن الأطياب وأجنبي»[٢].

العادة: وهي أيضاً من العقبات الصادة عن تطهير القلب والنهوض لمجاهدة الأهواء النفسانية والشهوات الشيطانية. فالوجه الظاهري للعادة محبوب يجذب القلب لأنها تعين العمل علىٰ وفق ما تريده النفس ولكن مع التظاهر بهيئة المحق والمحب لخير الإنسان الأمر الذي يوقعه في الغفلة عن شدة عداوة العادة له، يقولُ علي أمير المؤمنين عليه السلام: **«العادةُ عدوٌ متملك»**[٣]، لذا يجب التصدي لهذا العدو المتسلط الشرس الذي لا يجلب للإنسان سوىٰ أنواع الخبائث، وإلا فإنّه سيترسخ في وجود الإنسان حتىٰ يصبح طبيعة ثانية حاكمة في وجوده بل وتسعىٰ إلىٰ تولي مهام الطبيعة الأولىٰ أيضاً، وفي هذه الحالة يكون من الصعب جداً مواجهة هذه العادة بعد استئصالها، يقولُ علي أمير المؤمنين عليه السلام: **«العادة طبعٌ ثان»**[٤].

يروىٰ أن أحد أعوان سلاطين الجور كان جاراً لأبي بصير، وكان من الذين يجمعون الأموال من الحرام وقد جعل بيته مركزاً للفسقِ

---

(١) كتاب (رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي): ٣٦.

(٢) كتاب (معارف سلطان ولد) بالفارسية: ١٥١.

(٣) معجم ألفاظ غرر الحكم ودرر الكلم: ٦٩٨.

(٤) المصدر السابق: ٧٩٤.

والفجور يجتمع فيه أمثالُهُ من الفساق ويعقدون المجالس المحرمة الأمر الذي كان يؤذي أبا بصير كثيراً، وقد نصح أبو بصير جاره هذا مراراً ونهاه عن هذه المنكرات دون جدوىٰ، حتىٰ اضطر يوماً إلىٰ الضغط عليه بكل وسيلةٍ ممكنة للامتناع عن هذه الأفعال، فأجابه الرجل: إنني أسيرُ شيطان قد عودني علىٰ الفسق والفجور ولا أستطيع أن أترك ما اعتدتُ عليه، إنني مريضٌ ولا أستطيع أن أعالج نفسي، أنت لي نعم الجار وأنا لك شر جار.

لاحظوا كيف أصابته هذه العادة بالعجز عن إصلاح نفسه لأنها أضعفت إرادته. وقد اهتدىٰ الرجل فيما بعد ببركة الإمام الصادق عليه السلام.

تجلي نور اليقظة:

يعتقدُ مشائخ العرفاء أن قلب الإنسان مستعدٌ ذاتياً لاستقبال تجليات الحقائق، لكن الحجب الحائلة بين النفس وبين هذه الحقائق هي التي تمنع ظهور تجلياتها في قلب الإنسان، فإذا أُزيلت هذه الحجب تجلت في القلب حقائق الأشياء بظهورٍ كامل.

إن الغافل الذي جعل قلبَه ودينه ألعوبة بيد الشهوات في ملعب الدنيا، عندما يستيقظ من نوم الغفلة الذي غرق فيها بسبب وساوس الشيطان وهواجس ووساوس الشيطان، ببركة نسائم الألطاف والفضل الإلهي الذي لم يكن يستحقه، فيدرك هذا السر:

وبهذا الهم كان قلبي ينشط ويجتهد

لكن رؤية طلعتك النيرة هي التي يجب أن تكون نصب العين

وأين هذه الرؤية من مرتبة جعل عالم الخلق نصب العين[1]؟!

إذا أدرك المستيقظ من نومة الغفلة هذا السر، ندم على ما سلف منه وأدرك عمق ما كان فيه من خسر وناجىٰ نفسه بالقول: «أنا أيضاً كنت حائراً ولكن من أهل السلامة»[2]، وببركة هذه اليقظة يقوم المستيقظ بتشخيص الأمراض التي جعلته يتوجه بنظره إلىٰ العالم لا إلىٰ رب العالم، ثم يقوم بمعالجتها بعد تشخيصها لكي تكون عاقبته الارتواء بشراب العافية والسلامة من مستشفىٰ الشافي جل جلاله، فيستعيد - بنظرة لطفٍ من ساقي هذا الشارب الطهور من المستشفىٰ الربانية - السلامة والعافية التي كان قد ضيعها باتباع الشهوات:

ان علاج ضعف قلوبنا لا يكون الا بنظرة المودة من الساقي،
ولقد جاء الطبيب ومعه الدواء من محفل السر فاخرج رأسك[3]!

وبعد أن يتيقن المستيقظ التائب النادم من أن «حياةً جديدةً قد دبت في هذا القلب الذي كان ميتاً»[4]، حينئذٍ يدرك أن بدون تحقق

---

(١) ترجمة نثرية للأبيات بالفارسية تشير إلىٰ وقوع الإنسان في أسر عبادة الآلهة المزيفين الذين يتوهم أنه عندهم ما ينشده بفطرته من كمال وسعادة وسلامة علىٰ نحو الإطلاق ثم يدرك أن ما عندهم سراب وما ينشده هو عند الله وحده لا شريك له.

(٢) ترجمة نثرية لشطر بيت بالفارسية للشاعر حافظ الشيرازي وكامل البيت هي: «أنا أيضاً كنت حائراً ولكن من أهل السلامة، لأن طلعتك النيرة قد حولت مساري»، وهو يشير إلىٰ الجذبات الربانية التي تؤدي إلىٰ إيقاظ الحائرين وهدايتهم إلىٰ الصراط المستقيم الموصل إلىٰ الله تعالىٰ.

(٣) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية ينبه إلىٰ لزوم الاستعداد للاستجابة للألطاف الإلهية واستثمار جذبات اليقظة الإلهية.

(٤) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية لحافظ الشيرازي وتتمته تشير إلىٰ أن ذلك يبعث الحياة الجديدة هي نفحات الجذبات الإلهية.

هذا النوع من السلامة والعافية لن يكون بالإمكان تحقق الطهارة الباطنية المطلوبة، وبدون هذه الطهارة الباطنية ـ التي يشير إليها شيخ شيراز ـ فستكون الكعبة ومعبد الأوثان شيئاً واحداً لا أكثر:

مع انعدام الطهارة تكون الكعبة ومعبد الأوثان شيئاً واحداً لا أكثر

ولا خير في البيت الذي لا عصمة فيه[1].

يجب على المستيقظ التائب النادم على ما سلف منه أن يطلب سلطنة الهمة والعشق على حد تعبير رئيس كتاب محفل أسرار الغيب حافظ شيراز ـ من الطائر المبارك[2]، فيقوم ـ في ظل ألطافه ورعايته ـ بتطهير القلب من نجاسات المعاصي والخبائث التي تؤدي إلى إيقاعه في الظلمات، وعليه أن يجتهد في تخلية القلب والتغلب على الشهوات والسيطرة عليها، وتأهيل القلب بذلك لتجليات وفيوضات الحبيب جلّ وعلا، عليه أن يتوجه بكل وجوده إليه عز وجل ـ وهو المحبوب على الإطلاق، فلا يسمح لغيره بالدخول إلى قلبه، فإنَّ القلب لا يتسع لأكثر من واحد:

لا يوجد في قلب الدرويش المتحرر سوى ألف قامة الحبيب، فالقلب لا يتسع لأكثر من واحد[3].

إن المستيقظ التائب المعتكف في زاوية «دعوة الله» المقدسة والذي انضم إلى جمع سالكي طريق الله، يعيش في كل لحظة حالة

---

(١) ترجمة نثرية لبيت بالفارسية، ويُلاحظ أن الطهارة هي شرط بلوغ مقام العصمة الذي يشتمل على كل الخير.

(٢) يشير الطير المبارك في شعر حافظ الشيرازي إلى لزوم التمسك بحبل الهداية الإلهية للوصول إلى المقصد فالزخارف الدنيوية لا توصل لغير السراب.

(٣) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

الانتظار لإفاضات الله تعالىٰ وتجلياته[1]، فإذا صفت همته وصحت إرادته وصدق طلبه واكتملت مراقبته؛ ولم تجذبه شهوة القدرة ولم تحجبه أشكال التعلق الدنوية عن درك الحقائق؛ عندها سيسمع بإذن الروح صوت الهاتف الغيبي الصادق وهو يخاطبه: «جاءت البشارة بالقرب من حضرة سليمان»[2]، يخاطب شيخ محفل السر أهل هذه السعادة قائلًا [ما ترجمته النثرية]:

اشرب الكأس وتفرج على الجمال ببهجة، عندها سترىٰ
في أي مرآة سيتجلىٰ حبيبك.

إن المستيقظ يعرف حينئذٍ أن «تضرعه في الليالي والأسحار لم يذهب سدىً»[3]، فإنَّ نور اليقظة يتجلىٰ بكل جلاله وعظمته في قلب المستيقظ الطالب لتجلي الحبيب، وهذا النور المتجلي هو مظهر من تجليات الحبيب جل وعلا، فإذا تجلىٰ علىٰ قلبه أزاح عنه الظلمات والحجب الحائلة بين القلب وبين إدراك الحقائق، وحينئذٍ تعبرُ في البداية لوامع الحق تعالىٰ مثل ومضات البرق علىٰ القلب، ثم تأخذ بالاستقرار فيه بصورة تدريجية وتنطبع حقائق الشؤون الإلهية علىٰ صفحة النفس والقلب، فتتحول عبودية النفس في المستيقظ إلىٰ عبودية الله تعالىٰ، فيصبح متأدباً بآداب الشرع والشريعة بظاهره وباطنه، ويسيطر

---

(١) أكثر تأكيد المؤلف في هذا الفصل من كتابه، هو لزوم تعرض المؤمن للنفحات الإلهية والجذبات الربانية التي تفجر فيه كوامن الحركة الفطرية للسير والسلوك إلىٰ الله عز وجل، ويكون التعرض لذلك بالتطهر والعمل الصالح والتزكية. يقول رسول الله ﷺ: «**إن لله في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها**»، المحجة البيضاء ٥: ١٥.

(٢) ترجمة نثرية لشطر بيت بالفارسية للشاعر حافظ الشيرازي يشير إلىٰ ثمرة التعرض للنفحات الإلهية في استجلاب العون الإلهي للتقرب منه جلَّ وعلا.

(٣) ترجمة نثرية لشطر بيت بالفارسية للشاعر حافظ الشيرازي أيضاً تشير تتمته إلىٰ أن ثمرة هذا التعرض في الأسحار للجذبات الإلهية كانت اتصال قطرة وجود السالك ببحر التوحيد المطلق.

عليه الشوق لتزكية النفس وتطهيرها من الخبائث والظلمات، وعندها يسخر كل ما لديه من قوة في السعي للتخلي عن الرذائل والصفات القبيحة التي عرف خفاياها وخباياها عندما تجلىٰ فيه نور اليقظة، فهو يقوم بإخراجها من وجوده ـ ببركة تجلي نور اليقظة ـ بالفضائل والكمالات المعنوية.

إن تجلي نور اليقظة يمزق حجب الإبهام ويزيل الشك والحيرة، ويجعل الحق مشهوداً بالعيان، فينير للمستيقظ الطالب للقاء طريق السلوك، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾(١) إشارة لطيفة إلىٰ هذا المعنىٰ. فهذا النور المتجلي يؤدي إلىٰ التطهير والتزكية والتنوير والتخليد للنفس والقلب، فيما توفر الملكات والفضائل الأخلاقية الأرضية اللازمة للتحرر ا لكامل من أسر أشكال التعلق القلبي بمظاهر الدنيا، يقول لسان أهل السر الغيبي شيخ شيراز [ما ترجمته النثرية]:

إذا حصلت يا قلب على إضاءة من نور الهداية

كان بإمكانك ترك الهوىٰ بحرارة دفء الشمعة وبابتسامة.

إن دفىء وحرارة الحالة التي يوجدها تجلي اليقظة في المستيقظ تضعف تعلقه بكل ما سوىٰ الله عز وجل وهو في الطريق نحو غايته وهي لقاء الحبيب جل وعلا، كما أنها تقوي ـ في المقابل ـ عروج النفس وتحركها باتجاه الكمال وتزيد في سرعته، وعندها يحسُّ المتنوّر بنور اليقظة بجذبةٍ من قبل الحبيب وهو يسير في هذا الطريق، هذه الجذبة تغير حاله بقوة وتبعث فيه حرارةً عجيبة، ولقد صدق القائل:

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

لن يصل العاشقُ إلىٰ مناه بدون جذبةٍ تأتيه من الحبيب[1].

ولهذه الجذبة التي تحدث بعد تجلي نور اليقظة في المستيقظ آثارٌ عجيبة في تحقيق المرجو منها كل في محله، وأهم هذه الآثار أنها تملأُ وجوده بالشوق لسلوك الطريق والحب لإدراك الحقائق، وهذا الشوق يوجد فيه حالة النشوة والأنس بالله وعلامة وصول الطالب إليها شرح الصدر، وعلامة انشراح الصدر الانقطاع عن الدنيا، وهنا يجد المستيقظ كفه خاليةً لا يملك شيئاً فتنزع أركان صرح شهواته وتنهار أسس أهوائِهِ النفسانية، وتُسلب منه الإرادة ويفقد زمام الاختيار، فيكون لسان حاله: «جزىٰ الله خيراً من عمّر هذا البناء»[2]، علىٰ حد تعبير الشيخ حافظ الشيرازي، فالمستيقظ التائب لا يكون همّه في هذا المقام غير هم السلوك والسير إلىٰ الكمال، وقد أعدَّ لوازمه، إذْ حمل زاده في هذا السفر من آداب وسنن أهل المعرفة وسلك طريقه وهو يرجو لقاء الحبيب جلَّ وعلا:

لا تدخل الخرابات إلا بقدم الأدب، لأنّ ساكنيها هم أمناء سر السلطان[3].

القيام لله ثمرة تجلي نور اليقظة:

بعد أن يصبح قلب المستيقظ التائب عما سلف منه ملكاً للحق تعالىٰ، ينعزل الباطلُ عن الحق في هذا المقام، فيُلهم حينئذٍ الفجور

(١) ترجمة نثرية لشعر بالفارسية.

(٢) ترجمة لعجز بيت بالفارسية ترجمته هي: «إن منزلنا الحقيقي هي الخرابات، فجزىٰ الله خيراً مَن عمر بنائها»، والمقصود بالخرابات هو منزل الزهد في الدنيا والإنقطاع إلىٰ الله عز وجل، ففيها يكون خراب التعلق بالدنيا وعمران الإنقطاع إلىٰ الله عز وجل.

(٣) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية يشير إلىٰ أن الوصول إلىٰ مقام الزهد في الدنيا والإنقطاع إلىٰ الله يستلزم الإقتداء بسنن ووصايا أولياء الله والهداة إليه بأمره عز وجل.

والتقوىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[1]، وهنا يكون قيامُهُ لله، فيتحرك نحو حرم حضرته القدسية جل وعلا، وهذا القيام هو علامة الورع عن محارم الله وعن الفجور، ويكونُ زاده في هذا السفر هو التقوىٰ والقيام بأوامر الله ونتيجتُهُ المعرفة والوصول إلىٰ حضرة الحبيب علىٰ الإطلاق.

سير السالك هو بنور اليقظة:

عندما ينجح المستيقظ في حفظ روحه من هجمات المكر والخداع الشيطاني ومن عواطف الأهواء النفسانية، ويودعها بيد نور اليقظة: عندها يعزم ـ وهو طالب لقاء الحبيب ـ علىٰ السفر إلىٰ الله مستضيئاً بنور اليقظة، فيطلق عليه حينئذٍ وصف «السالك»، ويظل نور اليقظة مرافقاً له طوال مدة السلوك، فيأخذ بإزالة العقبات الصادة له عن متابعة سلوكه؛ وبتمزيق الحجب، فتتجلىٰ له يقظةٌ بنورٍ أكمل مع زوالِ كل حجاب يمزقه، لذلك فالأفضل أن يقال أن المستيقظ يجد اليقظة الإلهية بتجلي نور اليقظة، لا أن يُقال أنه ينقطع عن نفسه وينقطع إلىٰ الحق تعالىٰ إثر وقوع، هذا التجلي، لأنه إنما يخلع لباس العادة بعد تجلي نور اليقظة، ويتنزه حينئذٍ عن الشهوات والهواجس الشيطانية والنفسية، ويدخل في سلك طلاب الحق تعالىٰ، فيبقىٰ أمامه طريق طويل لا يُعلم متىٰ ينتهي:

عندما شاهدت ـ للمرة الأولىٰ ـ ذؤابتك، قلت: ان همَّ
هذا المسير لا نهاية له[2].

---

(١) الشمس: ٨ ـ ٩، والمراد من الاستشهاد بهما هنا هو الإشارة إلىٰ مراتب أعلىٰ في التعريف الإلهي للعبد بحقائق الفجور والتقوىٰ يتناسب مع مرتبته في السلوك إلىٰ الله، فيكون معنىٰ الفجور هو كل ما يشغل العبد عن مولاه والإنقطاع إليه، ومعنىٰ التقوىٰ هو الورع عن كل ما يشغل عن الإنقطاع إليه جل وعلا.

(٢) ترجمة نثرية لبيت بالفارسية، ومشاهدة «الذؤابة» إشارة إلىٰ رؤية القبسات الأولىٰ من نور =

إن تجلي نور اليقظة يجعل المستيقظ مسيطراً علىٰ قواه الحيوانية فينسىٰ نفسه ويتلظىٰ باستمرار في نار الشوق بحسرةٍ، لذلك عليه أن يندفع بكل قواه ووجوده ويتفانىٰ في السير في وادي السلوك حتىٰ يصل إلىٰ ديار الحبيب:

لا توجد محطات للاستراحة في طريق العشق فلا مناص من التفاني بالروح في سلوكه[1].

ولكنْ ـ ومن حسن التوفيق ـ فإنّ السالك إذا ذاق لذائذ السلوك وتشرب وجوده بكل لطائفه وظرائفه، صار لسان حاله ما أنشده لسان غيب أهل محفل السر حيث قال [ما ترجمته النثرية]:

صدقني ـ أيها الحبيب ـ لن أترك أذيالك الىٰ أن تُشد أذيالُ الكفن عليّ تحت تراب القبر.

يعتقدُ أهل المعرفة أن السلوك سير خاصّ يشتمل علىٰ: **السير إلىٰ الله والسير في الله**، فللسير إلىٰ الله نهاية هي أن يصل السالك الطالب للقاء الله إلىٰ معرفة حبيبه جلّ وعلا، وحسب تعبير الشيخ عز الدين النسفي أن يصل إلىٰ مقام: «أن يفنىٰ عن وجوده الذاتي، ويكون له وجود بوجود الله، فيكون حيّاً بالله وعالماً بالله وبصيراً بالله وسميعاً بالله»[2].

ولكن إذا انتهىٰ السير إلىٰ الله كانت نهايته بداية السير في الله وهذا السير لا نهاية له، وعلىٰ حدّ تعبير النسفي ـ وهو العارف الكبروي

= جمال الحبيب، وهذه القبسات تعرف السالك بأن صاحب هذا الجمال غير محدود الكمالات لذلك فإن السير في آفاقها لا حدود لها ولا انتهاء.

(١) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية، وفيه إشارة إلىٰ تجليات الجلال والجمال الإلهي تشد السالك إليها بقوة يجد معها أنّ مِن غير اللائق به أن يتوقف لحظة عن طلبه لصاحب كل هذه الكمالات، لأن في ذلك حرمانٌ من الفوز بالثمار العظيمة الناتجة من كل لحظة من لحظات السير والسلوك إليه.

(٢) كتاب الإنسان الكامل: ١٢.

المشرب ـ فإن: «للإنسان مراتب، والصفات والأخلاق الإنسانية المكنونة في الذات الإنسانية تظهر في كل مرتبةٍ بشيء، فإذا ظهرت جميع هذه المراتب الإنسانية، وانتهىٰ أمد «العالم الصغير»، صار هذا السالك الذي أتم العالم الصغير نائباً وخليفة في «العالم الكبير»: قال: هو، قال: ليكن «الله»، وهذا هو تجلي الاسم الأعظم»(١).

يقول الشيخ عبد الله الأنصاري ـ قدس الله روحه العزيزة ـ: «إلهي، عرفني نفسي وحررني من أسر نفسي، يا موصل أوصلني إلىٰ نفسي، فلم يصل أحدٌ إلىٰ نفسه، إلهي ذكرك أنسي وحبك حصني، معرفتك ملك، والوصول إليك سرور وكلامك رَوحُ الروح»(٢).

إن هؤلاء السائرين يشترون البلاَ بالنفوس لكي يصلوا إلىٰ ديار الحبيب جل وعلا، وهم يعرفون بأي شيءٍ سيتعلقون لو كفوا عن التمسك بأذيال طلب الحبيب، ولذلك فقد وضعوا أرواحهم علىٰ الأكفِ متفانين في السير بعشقٍ إلىٰ رحاب قرب الحبيب ـ تبارك وتعالىٰ:

السائرون المقيمون لا يجتنبون البلاء، فهل يفرُّ أسرىٰ الحب إلا من الظلم؟!

فبأي شيءٍ يتعلق الآملون الراجون لو كفوا أيدي الطلب عن أذيال الحبيب(٣)؟!

---

(١) المصدر السابق: ٨٤.

(٢) كتاب كشف الأسرار وعدة الأبرار ٧: ١٢٥.

(٣) ترجمة نثرية لأبيات بالفارسية، وفي قوله «السائرون المقيمون» إشارة إلىٰ أن هذا السفر معنوي أولًا، وثانياً أن السائر فيه يكون مقيماً في ظل الرعاية والنفحات الإلهية، والشعر يشير إلى أن طالبي الحق تعالىٰ يتلذذون بصعاب السلوك لأن فيها رضا مولاهم الحق الذي لا ملجأ لهم ـ إذا أعرضوا عنه ـ سوىٰ التعلق بشجرة الدنيا الخبيثة والتهاوي في أسفل سافلين.

الفهرس